مذاهب وشخصيات

شكيب أرسلان

من رواد الوحدة العربية

بقلم
أحمد الشرباصي

مذاهب وشخصيات

شكيب أرسلان

من رواد الوحدة العربية

بقلم
أحمد الشرباصي

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله تبارك وتعالى ، ونصلى ونسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد وآله ، وصحبه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، ونستفتح بالذى هو خير : « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا ، وإليك المصير » .

قبس من كتاب الله

« مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ . وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا ، لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ . وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً ، وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرا . وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا » .

(سورة الأحزاب)

تصدير

أمير البيان شكيب أرسلان علمٌ من أعلام العروبة والإسلام ، وقد عاش للثقافة العربية ، والقومية العربية . والوحدة العربية ، والإيمان بمستقبل الأمة العربية فوق خدماته للاسلام والمسلمين .

كان مترهبا فى خدمة الثقافة العربية . يطلبها ويعرضها وينافح عنها ويزيد فيها ، وكان مؤمنا بالقومية ، ولذلك يقول : « كل رجل يتمسك بعوائد ومميزات قومه فاعلم أن فى روحه شمماً حمله على ذلك » . ويقول أيضا : « إنه خير لمرء أن يكون راعى ضأن فى عزّ قومه من أن يكون السلطانَ الأعظم على قوم أذلاء » .

وكان مؤمنا بالوحدة العربية . ومن قوله : « إن الأمة العربية سائرة إلى الوحدة ، مهما عارض فى ذلك اللئامُ من أعدائها ، والمتفلسفون من أبنائها ، وإن هذه الوحدة آتية لاريب فيها » . ويقول مصوّرا إيمانه بمستقبل الأمة العربية : « إن العرب الذين فى العالم اليوم لا يقدر أن يبتلعهم أحد . والمستقبل لهم » .

وحياة أمير البيان طويلة عريضة مليئة ، ولى فيها دراسة أدبية واسعة مبسوطة ، ولكنى أحببت فى هذا المجال أن أقدم أثارة من هذه الدراسة ، تقتصر على تصوير العصر الحافل الذى عاش فيه شكيب ، وعلى تركيز المراحل التى مر عليها فى حياته الضخمة .

وأرجو أن يجد كلُّ عربى مؤمن فى هذه الصفحات ما يزيده إيمانا بأبطال هذه الأمة العظيمة ، وإيمانا بمبادئها العالية ، وعقائدها السامية ، وأهدافها الرفيعة . وإن أبناء هذه الأمة لجديرون بأن يبنوا كما بنى أجداد لهم وأسلاف . « وعلى الله قصد السبيل » .

القاهرة فى الأول من فبراير ١٩٦٣ — أحمد الشرباصى

الباب الأول
العالم العربي في عصر شكيب أرسلان

العالم العربي
في عصر شكيب

الحالة السياسية :

عاش أمير البيان شكيب أرسلان أكثر من ثلاثة أرباع قرن ، لأنه وُلد في أواخر سنة ١٨٦٩ م ، وتوفي في أواخر عام ١٩٤٦ م ، ولم تكن هذه الأعوام التي دنت من الثمانين أعواماً هادئة في دنيا الأفراد والجماعات ، بل كانت حافلة بجلائل الأحداث في الشرق والغرب بصفة عامة . وفي العالم العربي بصفة خاصة ، وفي بلاد الشام موطن شكيب بصفة أخص .

فما أكثر الأحداث التي وقعت وتأثرت بها لبنان وسورية وما جاورهما من بلاد العروبة والإسلام ، فهناك أحداث الفترة الأخيرة من الحكم العثماني ، والشقاق بين الترك والعرب . والتنازع بين الطوائف والأديان ، وتغلغل النفوذ الأجنبي ، وانبثاق التيارات الفكرية الغربية . ويقظة القومية العربية ، وقيام الحرب العالمية الأولى ، والاختلاف بين مفكري الأمة العربية في المنازع والمشارب ، وقيام الثورة العربية في الحجاز ، وتمزيق العالم العربي وتوزيعه بين انجلترة وفرنسة . ومآسي الاحتلال ، والانتداب ، والوصاية ، والحماية ، والثورات التي قامت في بلاد العروبة ، وقيام الحرب العالمية الثانية ، وتقلص الاحتلال عن بلاد العرب شيئاً فشيئاً ، واستقلال سورية ولبنان ، وغير ذلك من الأحداث .

إنها مجموعة ضخمة من الأحداث التي تضم في جنباتها كثيرا من الوقائع الفرعية التي لا يتسع لسردها المجال . وقد أثرت هذه الأحداث في الحياة السياسية والقومية ، والعلمية والأدبية والاجتماعية .

ولا عجب فإن هذه الفترة الطويلة التى عاشها شكيب قد شغلت الربع الأخير من القرن التاسع عشر الذى أثر تأثيراً بليغاً فى حياة المجموعة البشرية ، بسبب ما بدا فيه من كشوف علمية ، ونهضة صناعية ، ومذاهب اقتصادية ، وتيارات سياسية ، ومحاولات استعمارية .

كما شغلت هذه الفترة النصفَ الأول من القرن العشرين ، وفى هذا النصف قامت حربان عالميتان مفزعتان ، نكبتا البشرية فى الكثير من أبنائها . والضخم من جهودها ، والواسع من تعميرها ، وفى هذا النصف أيضاً زالت دول وقامت دول ، وتحررت شعوب واستقلت بلاد ، واتصل حبل الكشوف العلمية ، وتوالت خطوات التقدم الصناعى والعلمى والاجتماعى ، وجدّت فى دنيا السياسة مذاهبُ وتيارات .

وإذا كان أمير الشعراء شوقى قد قال فى « مصرع كليوباترة » على لسان الملكة التى انتحرت ولما تزل غضة الإهاب موفورة الشباب :

يومى بأيام لكثرة ما مشت فيه الحياة ، وليلتى بليال

فإن من حق الأمير شكيب الذى عاش ما يقرب من الثمانين أن يقول : إن عامى بأعوام وأعوام ، فكيف وقد عشتُ هذا العمر الطويل بين جلائل الأحداث وعظائم الأمور ؟ .

والأمير نفسه يذكر هذا فى كتاباته ورسائله أكثر من مرة[1] .

وليس من غرضى أن أفصل القول عن أحداث هذا العصر فى الشرق والغرب ، وإنما يكفى التعرض للأحداث التى وقعت فى موطن شكيب : لبنان وسورية[2] ، أو على مقربة من هذا الموطن ، وللأحداث التى لها صلة أو أثر فيه ، مما يكون لشكيب به علاقة ، أو يكون له أثر فى حياته وأعماله ، ولعل هذا التعرض يعطينا صورةً واضحة للحياة السياسية والأدبية والاجتماعية ،

---

(١) انظر مثلا كتاب النهضة العربية ، ص ٩ .

(٢) كان شكيب لا يفرق بينهما إلا فى التسمية تقريبا ، فهو يعتبرهما معا وطنه الأول .

ولعل هذه الصورة تعاوننا فى المضى مع شكيب فى حياته ، حينما نتعرف إليه ناثراً وشاعراً ، وباحثاً ومفكراً .

لقد شهد الأمير شكيب تطورَ العالم العربى خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، وشاهد الأحداثَ الجسام التى مرت بأمته ، وفهم الدسائس والمؤامرات التى تحاك لها ، وكان على مقربة من مركز الخلافة فى « اسطنبول » ، وتحققت له صلات ومعرفة برجال الحكم العثمانى ، وفاضت كتاباته بالحديث عن كل ذلك[1] .

وإذا كنا نستطيع أن نلحظ بسهولة أن أهم تحول فى حياة شكيب هو انتقاله من النزعة العثمانية الإسلامية التى أخلص لها ما يقرب من ثلثى حياته ، إلى النزعة العربية الإسلامية التى عمل لها بقيةَ حياته ، ونستطيع أن نقرر أن نهاية الحرب العالمية الأولى كانت بدايةَ لآخر المراحل فى عثمانيته . وأن ما حدث عقبها من تمزيق للبلاد العربية ، وتوزيع لها بين الحلفاء ، كان سبباً جوهرياً فى اتجاهه العربى القومى . كان من حقنا أن نشير إلى صلة الدولة العثمانية بالبلاد العربية .

لقد استولت الدولة العثمانية على الشام فى القرن السادس عشر ، وساسته مع بقية البلاد العربية التى سيطرت عليها — وبخاصة فى أخريات أيامها — سياسة متعصبة ، فشددت على الأقليات ، وحرمتها الكثير من حقوقها[2] ، وانتقل استعمال الشدة من الأقليات إلى غيرها ، حتى قال بعض الباحثين : « ظلت مصر وبلاد العروبة ثلاثة قرون تحت حكم الأتراك ، وهى فى ظلام دامس ، وجهل فاضح ، تعانى مرارة الظلم وقسوة البغى . قلب ما شئت من أسفار التاريخ ، فلن ترى إلا صفحات سوداء قاتمة ، تنبعث منها روائح الاستبداد والبطش ، وستسمع صراخ المظلومين يصم الآذان ، وتلمح دماء الفلاحين فى كل صقع

---

(١) كتاب محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان ، الصفحة الأولى .

(٢) المرجع السابق ص ٢ .

تسيل تحت سياط الجباة ، وتتمثل لك بلاد العروبة تخنقها يد غاشمة ، أصابعها : الفقر ، والمرض ، والجهل ، والذلة ، والانحلال »[1] :

ومع ما قد نلحظه فى هذا التعبير من عنصر المبالغة فى التصوير ، لا نستطيع أن ننكر سلسلة المظالم التى حاقت بالعالم العربى عن طريق الحكم العثمانى ، وفى الفترة الأخيرة منه بوجه خاص ، لأن السلطنة العثمانية « لم تجد صعوبة فى قيادة هذه البلاد وتصريف أمورها ، لأن أهلها يخضعون للدولة خضوعا اختياريا مبنيا على العقيدة والدين ، فالسلطنة دولة إسلامية ، زعيمها هو خليفة المسلمين ، وهى تدافع عن بيضة الإسلام »[2] .

ولكن تفاقم الخطب وتكاثر الشر وتضاؤل الخير وطول الأمد ، جعل هذا الخضوع الاختيارى يتزلزل فيخف سلطانه على أهليه . وزاد الطين بلة أن الدولة العثمانية بما ارتكبه حكامها من اضطهاد للأقليات فى بلاد العرب فتحت الباب للتدخل الأوربى .

وأسس هؤلاء الأجانب مدارس أجنبية فى البلاد العربية ، لتدريس اللغات الأجنبية مع العلوم الأخرى ، ومن عجب أن هذه المدارس كانت تعنى فيما تعنى به — باللغة العربية — أكثر من عناية المدارس التركية بهذه اللغة ، مع أنها لغة القرآن عماد الإسلام الذى تستند الدولة العثمانية فى حكمها إلى اسمه واسم الخلافة الإسلامية المنتسبة إليه . ولا شك أن هذه المدارس كانت فى باطنها ركيزةً لهؤلاء الأجانب الخبثاء ، وعاملا من عوامل زعزعة الثقة بالدولة العثمانية فى البلاد العربية .

ولم يقف نشاط الأجانب عند إنشاء هذه المدارس ، بل منهم من حرّض أبناء البلاد العربية على الاستخفاف بالدولة العثمانية ، أو الثورة عليها .

واستغلت أوربا ظروفاً مختلفة لتقص أطراف الدولة العثمانية الواسعة ،

---

(١) كتاب فى الأدب الحديث ، ج ١ ص ٩ .

(٢) محاضرات فى نشوء القومية العربية ، ص ١٠٨ .

فاستولت فرنسة على تونس، وإيطالية على طرابلس الغرب، وانجلترة على مصر، وأخذت كل دولة من هذه الدول تبث الشقاق فى البلد الذى احتلته . وتغرى أبناءه بالوعود الخلابة المعسولة، وتحاول فى الوقت نفسه فصم العرى بينه وبين الدولة العثمانية .

وأما فيما يتعلق بلبنان — مسقط رأس شكيب — فإن الشيخ محمد عبده يقول عنه حوالى سنة ١٣٠٤ هـ = ١٨٨٦ م، أى قبيل انتهاء القرن التاسع عشر بنحو أربع عشرة سنة :

« فلبنان يتنازع النفوذ فيه دولتا فرنسة وانجلترة ، وليس بخاف ما تأتى به هذه المسابقة السياسية، بعد ما ظهرت آثار مثلها فى بلاد أخر . والدولة [يقصد العثمانية] أعزها الله — مع أن البلاد بلادها — ليس لها من يروِّج سياستها، ويؤيد كلمتها، وأمرها يتبع ميل (المتصرف) . إن صدق فى خدمتها كان لها، وإلا صار إلى غيرها . والمتصرف شخص يعزل ويولَّى ، وأهل البلاد هم القوة الراسخة ، وبهم تؤزر السلطة فيهم[1] » .

ومصر ذات ارتباط بالشام منذ أقدم العصور ، ولسنا بحاجة هنا إلى مراجعة هذه العصور ، إذ حسبنا عصر شكيب وما ارتبط به من قرب .

فى مطلع القرن التاسع عشر غزا نابليون مصر بحملته المشهورة . ثم حاصر عكا ، ولم يقدر على احتلالها ، وكانت الحملة الفرنسية على مصر والشام أشبه بيد تقرع الباب . وتشعر الشرق العربى أن الغرب المستعمر لن يتركه ناعماً فى خدره .

وفى سنة ١٨٣١ م قام إبراهيم باشا بحملة على الشام ، ولكن الجيش المصرى انسحب من الشام سنة ١٨٤٠ ، وعادت الشام إلى حكم العثمانيين ، إلى أن كانت سنة ١٨٦٠ وحدثت الحوادث الطائفية المؤسفة التى نعتقد أن لأوربة الاستعمارية الماكرة يداً فيها ، وتدخل نابليون الثالث ، وظفر لبنان بعد هذا باستقلاله الذاتى داخل إطار الدولة العثمانية[2] .

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ج ٢ ص ٥٢٥ و ٥٢٦ من تقرير للشيخ فى إصلاح سورية .
(٢) شعراء الحماسة والعروبة فى بلاد الشام ، ص ٦ و ٧ .

وفى سنة ١٨٧٦م تولى السلطان عبد الحميد الخلافة العثمانية بعد مقتل عمه السلطان عبد العزيز ، وأعلن السلطان عبد الحميد دستوره الأول تحت ضغط الأحرار من العثمانيين ، وولى « مدحت باشا » منصب الصدارة العظمى ، وكانت ميول « مدحت باشا » دستورية ، وفيها محبة للحرية ، ولكن السلطان عبد الحميد عاد فوقف العمل بالدستور ، وفض البرلمان ، وأبعد مدحت باشا .

وظل عبد الحميد يحكم حكما استبداديا مدة طويلة زادت على الثلاثين عاما ، ثم عاد تحت ضغط الرأى العام فنشر الدستور مجددا بعد ثنتين وثلاثين سنة من وأده[1] ، وكان نشره فى ٢٤ من تموز (يوليه) سنة ١٩٠٨ .

وكان يوم إعلان الدستور العثمانى يوما عظيما فى تاريخ السلطنة العثمانية ، وأقيمت من أجله حفلات ، وألقيت خطب ، ونظمت قصائد ، وتجلت مظاهر الفرح بين الأتراك والعرب ، وبين المسلمين والمسيحيين .

وقد نظم شكيب فى هذا الدستور قصيدة ملأها مديحا وثناء فى منح الدستور وفى « الإمام الخليفة » الذى وهبه ، وفى بنى عثمان وحسبنا أنه بدأها بقوله :

ألا يا بنى عثمان حسبكم بشرى لقد جاد ربُّ العرش بالنعمة الكبرى

ويصف الخليفة بأنه « ظل الله » فيشير إلى عناية الله فى مجىء الدستور ويقول :

وألهم مولانا الخليفةَ ظله قياما على الدستور فى الدولة الغرا
تداركها رمقا بإكسير ناظر إذا مال نحو الترب صيره تبرا
فلتم بنعماه حياةً جديدة غدت بنفوس عند غيركم تشرى

وبعد أن يطيل التغنى بأمة عثمان وأمجادها يقول :

وفدوا أمير المؤمنين بأنفس كفتها إلى عثمان نسبتها فخرا .. إلخ

كما أنه صاغ فى الدستور قصيدة أخرى فُقدت منه ، ولكنه تذكر أربعة أبيات فيها نشرها بديوانه[2] .

---

(١) المرجع السابق ص ٧ و ٨ .
(٢) ديوان الأمير شكيب ، ص ١٠٢ و ١٠٣ .

وعقب إعلان الدستور العثمانى أخذ بعض الأتراك يهمسون بالدعوة « الطورانية » . وكلمة « طوران » تطلق على البلاد الشاسعة التى يقطنها الأتراك وأقارب الأتراك من المغول والتتار وغيرهما . وكلمة « الطورانية » تفيد معنى النزعة القومية عند الأتراك[1] .

وأخذ بعض الأتراك يبدى رغبة شديدة فى « تتريك » الدولة ، بجعل اللغة التركية هى اللغة الرسمية . وتنقيتها من الألفاظ العربية ، والاعتزاز بعظماء الأتراك بدل عظماء العرب . وأسرفت جريدتا « طنين » و « إقدام » فى توسيع هوة الخلاف بين العرب والترك بحملاتهما على العرب ، مما جعل العرب ، يفكرون فى الرد على ذلك بتأليف جمعياتهم العربية ما بين سنتى ١٩٠٩ و ١٩١٣[2] .

وفى سنة ١٩٠٩ — أى بعد ثلثى عام تقريبا من صدور الدستور — حدثت « فتنة الرجعية » ، إذ حاول السلطان عبد الحميد — بعد اضطراره إلى إصدار الدستور — أن يلغى الدستور مرة أخرى ، واستعان فى ذلك بالأحزاب الرجعية ، ففى ٣١ من آذار (مارس) سنة ١٩٠٩ أحاطت قوات من الجنود الرجعية بمجلس النواب العثمانى ، وطالبت بإغلاقه ووقف الدستور ، ولكن الضباط الأحرار — وعلى رأسهم محمود شوكت[3] — زحفوا على القسطنطينية ، وثبتوا دعائم الدستور ، وخلعوا السلطان عبد الحميد فى ٢٧ من نيسان (إبريل) ١٩٠٩ ، وأرسلوه سجينا إلى بلدة « سالونيك » . وبايعوا أخاه « محمد رشاد » خليفة وسلطاناً دستورياً على البلاد العثمانية[4] .

كانت الدعوة إلى « الطورانية » و « تتريك الدولة » ، ومحاولة القضاء على الدستور وهو مازال وليداً ، من الأسباب التى جعلت كثيراً من العرب يفكرون فى أمرهم وفى وضعهم داخل الدولة . وأغلب الظن أن شكوكا

---

(١) محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ص ١٥٢ .
(٢) شعراء الحماسة والعروبة فى بلاد الشام ، ص ٢٧ .
(٣) الأتراك يكتبون (شوكت) وأمثالها بالتاء المفتوحة .
(٤) المرجع السابق ، ص ٣٩ .

ساورت نفوسهم ، وأن خشية سيطرت عليها من المستقبل المبهم ، وجاءت أسباب أخرى زادت المشكلة تعقيدا .

لقد كان من عيوب هذا الحكم العثمانى أنه هيأ الجو لإثارة التعصب بين المسلمين والمسيحيين ، وكانت هذه الإثارة أحد الأسباب التى أدت إلى حوادث مؤسفة بين الفريقين ، كالواقعة التى وقعت بين النصارى والدروز سنة ١٨٤١ فى لبنان بسبب التنافس على الحكم ، وكالواقعة التى وقعت بين الفريقين سنة ١٨٦٠ وسقط فيها كثير من القتلى ، وتدخلت فرنسة بجيشها ، لولا أن الدولة العثمانية أخذت مثيرى الفتنة بالشدة ، فتراجعت فرنسا نزولا على رغبة النمسا وانكلترا اللتين خافتا من تغلغل نفوذ فرنسا فى هذه المنطقة[1] .

وفسر بعض الباحثين هذه الإثارة بأنها سياسة مقصودة من الدولة العثمانية ، فقال : « لم يكن من مصلحة ظلمة الاستبداد فى الحكومة الغابرة (قبل إعلان الدستور) أن يؤلفوا بين القلوب ، إذ كانوا يعتقدون لجهلهم أن وفاق الأمة يدك معاقل صولتهم »[2] .

وما كادت بشرى إعلان الدستور تسرى حتى تعانق المسلمون والمسيحيون فى الطرقات ، وصار رؤساء الدين من المسلمين والمسيحيين يتعانقون ، « وهناك تآخى الفريقان ، وتحاب القبيلان ، وعلموا أن العثمانيين جسم واحد تديره روح واحدة » كما قال مصطفى الغلاييني[3] .

حتى قال بعض الشعراء :

تعانق الشيخ والقسيس واصطحبا ... من بعد ما افترقا ضدين واختصما
تآخيا فى حمى الدستور واتحدا ... ورفرفت راية التوحيد بينهما[4]

***

(١) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ٤ .
(٢) كتاب عبرة وذكرى ، ص ١٠١ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) صحيفة لسان الحال ، عدد آب ١٩٠٨ .

ولكن بعد خلع عبد الحميد ، وتثبيت الدستور ، ومبايعة « رشاد » ، والانتهاء من نشوة الفرحة ، تطلع الناس فرأوا الفساد مازال باقياً ، إذ لم يكن من السهل لدولة قضت قرنين من الزمان وهى تحتضر ، أن تنهض وترقى فى سنة اوسنتين ، كما أن ولاة الأمر لم يعنوا بتحقق الإصلاح بعد أن استقروا فى مناصبهم ، ولذلك شاعت الحسرة والتشاؤم بين الناس ، حتى يصور ذلك الشاعر فارس الخورى بقوله من قصيدة عنوانها : « أيتها العدالة » :

فبين الناس جور واعتداء عزيز القوم يعبث بالذليل
وسوق الزور رائجة ، وفيها يباع الحق بالثمن القليل
لقد حلفوا اليمين وأحرجوها على الإخلاص والحزم الأصيل
ألا سرعان ما حنثوا ومانوا وعادوا للخيانة والخمول
ومدوا للرشا كفا خسيسا وباعوا بالنضار دم القتيل[1]

* * *

وبدأت الشكوى من الحكم العثمانى تتحرك وتسرى فى البلاد العربية ، بأن أخذ بعض المفكرين العرب يصفون سوء الأحوال فى البلاد العربية ، ويقارنون بين الولايات العربية التابعة للخلافة وبين سائر الولايات العثمانية ، وكانوا يخرجون من هذه المقارنة بأن حقوق العرب مهضومة فى السلطنة العثمانية .

وكان هؤلاء المفكرون ينقسمون من جهة آرائهم إلى جماعات :

١ — جماعة تتمنى قيام خلافة عربية تعيد الحق إلى نصابه .

٢ — وجماعة تطالب الدولة العثمانية بإجراء إصلاحات جدية فى البلاد العربية .

٣ — وجماعة تشترك مع أحرار الأتراك فى الدعوة إلى إصلاحات عامة تشمل جميع البلاد العثمانية على حد سواء .

---

(١) شعراء الحماسة والمروءة فى بلاد الشام ص ٣٤و٣٥ . والرشا : جمع رشوة ، وهى ما يعطيه الإنسان للحاكم كى يحكم له

٤ ــ وجماعة تطالب بمراعاة حقوق العرب فى مختلف شئون الدولة[١] .

* * *

وينبغى أن نلاحظ أنه فى الفترة الواقعة بين خلع السلطان عبد الحميد وإعلان الحرب العالمية الأولى كانت الدولة العثمانية فى موقف حرج ، وكانت فى وضع دولى وعسكرى لا تحسد عليه ، ففى سنة ١٩٠٨ انتزعت النمسا مقاطعتى « البوسنة » و « الهرسك » من جسم الدولة العثمانية ، وفى سنة ١٩١١ بدأت حرب طرابلس الغرب بين العثمانيين والإيطاليين ، وهى الحرب التى اشترك فيها الأمير شكيب ، وكانت نتيجة هذه الحرب استيلاء إيطاليا على هذا القطر العربى ، وبين سنتى ١٩١٢ و ١٩١٣ نشبت الحرب البلقانية ، واتحد فيها العرب والبلغار واليونان ضد الدولة العثمانية ، وانتهزوا فرصة اشتغالها بحرب طرابلس ، واستخلصوا الممتلكات البلقانية من يدها ، كما فقدت الدولة جزيرة « كريت »[٢]

كل هذه الأحداث وسواها نالت من قوة الدولة وهيبتها ، وعاونت على تعجيل الشيخوخة والضعف إليها .

فإذا ما نظرنا إلى العلاقة بين الدولة العثمانية والعرب وجدنا أنه لم تكن هناك حتى أواخر القرن التاسع عشر حركة جدية فى البلاد العربية للانفصال عن السلطنة العثمانية والاستقلال بكيان سياسى منظم[٣] . بل ظلت النزعة العثمانية بارزة فى المجتمع العربى وفى الأدب العربى إلى أوائل الحرب العالمية الأولى ، ففى أوائل العهد الدستورى ــ كما يقول الأستاذ أنيس المقدسى ــ كان الشعر العربى فى سورية ومصر والعراق يجلى ألوانا من الوطنية غير واضحة الحدود ، ولكن كما أن ألوان الطيف إذا مزجت معاً كونت شيئاً واحداً هو النور ، وكذلك تلك الألوان العاطفية من دينية أو قومية مرجعها واحد ، هو

---

(١) محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ص ١٦٤

(٢) شعراء الحماسة والعروبة فى بلاد الشام ص ٤٦

(٣) الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث ، ج ١ ص ١١

الإحساس الحاد بكرامة شرقية لم يعهدها الشرقيون أو العرب منهم قبل ذلك العهد .

وقد كان لنشوة الدستور يد فى تعميم ذلك الإحساس ، وإلباسه أحياناً لباسَ الجامعة العثمانية ، وكانت تلك النشوة على أشدها فى السنة الأولى من إعلان الدستور أيام كان الناس لا يزالون يطفرون فرحاً بزوال الاستبداد ، وينظرون إلى المستقبل بعيون التفاؤل والاستبشار ، ثم أخذت بالتراخى تدريجا

على أن النزعة الشرقية المصطبغة بالصبغة العثمانية ظلت بارزة فى الأدب العربى إلى أوائل الحرب العالمية ، ومما يزكى ذلك ما نظمه الشعراء سنة ١٩١٣ فى حادثة الطيارين التركيين « فتحى ، وصادق » ، وهما أول طيارين شرقيين ظهرا فى سماء الشرق العربى . فلما وصلا سورية ولبنان قابلهما الأدب العربى بهبة وطنية هزت أعصاب الناس ، وأثارت نخوتهم الشرقية ، أو قل العثمانية ، كقول الشيخ مصطفى الغلاييني من قصيدة حماسية :

خيمتما فوق الرءوس فأشرقت ... منا الوجوه وأزهرت أنوارها
وفتحت يا « فتحى » القلوب بزهرة ... أحيا موات رجائنا تذكارها
ونزعت منا اليأس وهو بليـــة ... شنعاء عمت قومنا أضرارها

ومثل هذه الحماسة الوطنية تتجلى فى أقوال أكثر الشعراء لذلك العهد ، ثم طار الطياران يقصدان مصر . ولكن القدر المحتوم لم يمهلهما فسقطا قرب طبرية ، وكان لمصرعهما رنة أسف عمت جميع الأقطار العربية . وقد جعلهما الشعر العربى مثال الوطنية الشرقية المتحفزة لمباراة الغرب ، وفى ذلك يقول إلياس فياض :

« فتحى » أطل من السما مكذبا ... من قال إنا أمة لن تتقدما
من قال إن الشرق شعب خامل ... لا يستطيع مع الشعوب تقدما
اليوم قد جـــددتما لشبابه ... عهد يُنَسّى عهـــده المتصرما
أهرقتما للعلم أفضل مهجة ... كانت تراق على المظالم قبلما
هذا هو الدرس المفيد ، وهذه ... عظة الزمان فهل لنا أن نعلما ؟
من ليس يعرف أن يموت مكرما ... هيهات يعرف أن يعيش مكرما

ويتجلى شعور المصريين يومئذ فى قول شاعرهم حافظ من قصيدة :

أخت الكواكب ما رما ك وأنت رامية النسور ؟
ماذا دهاك وفوق ظهـــرك مربض الأسد الهصور ؟

ومنها مخاطبا فتحى :

حاولت أن ترد الهجرة والورود من العســـير
فوردت يا فتحى الحما م وأنت منقطع النظير
وهويت من كبد السما ء وهكذا مهوى البدور
إن كان أعياك الصعو د بذلك الجسد الطهور
فاسبح بروحك وحدها واصعد إلى الملك الكبير

ومثلها قصيدة لعبد المطلب مطلعها : «وقفت لك الدنيا فسيرى» ، وقصيدة شوقى : « انظر إلى الأقمار كيف تزول » ، وعلى هذا النمط كثير من الشعر الوطنى فى بيروت ودمشق وبغداد والقاهرة ، وسواها من حواضر العالم العربى .

وإذا قيل : كيف ذلك والعرب يومئذ كانوا قد بدءوا يستنكرن سياسة الاتحاديين الأتراك ، ويتشوفون إلى حياة قومية وكيان مستقل ، بدليل ما نراه من جمعياتهم السياسية فى مصر وغيرمصر ؟. قلنا إن تلك الجمعيات لم تكن تملك من وسائل الدعاية ما يشيع فى جميع الأنحاء مبادئها ، أو ما يجمع القلوب على نصرتها ، فظلّ السواد الأعظم من أبناء العربية متعلقين بآمالهم الدستورية ، لا يرون لهم من رابطة غير الخلافة العثمانية .

ثم إن الحركة العربية الاستقلالية لم تكن قد نضجت نضجا كافيا لتأصيل فكرة الانفصال عن الجامعة العثمانية ، ويخيل إلينا من دراسة عواطف الناس فى ذلك الحين أن الزعماء الذين كانوا يعملون فى سبيل الفكرة العربية لم يكونوا على بينة من هذا الأمر ، ولو راجعت الرسائل التى كان يتبادلها سرا أمثال عبد الحميد الزهراوى ومختار بيهم ومحمد المحمصانى وسليم الجزائرى ورشيد رضا وإخوانهم من أعضاء المؤتمر العربى أو الجمعية الإصلاحية ، لوجدت ما يزكى قولنا إن الإصلاح الذى كانوا ينشدونه لم يكن يراد به أولا القضاء على الرابطة

العثمانية والاستهداف لمطامع الاستعمار . ولو عرفت تركيا يومئذ كيف تستغل شعور الناس لألفت من الكتلتين التركية والعربية جامعة عزيزة الجانب صادقة الوطنية ، لكن السياسة العنصرية الحادة حالت دون ذلك . فكانت من الأسباب المعجلة لنجاح الدعايات الأوربية فى الشرق العربى ، ثم لإشعال الثورة العربية فى أثناء الحرب الكبرى سنة ١٩١٦[١] » .

* * *

وعلى الرغم من بقاء النزعة العثمانية ظاهرة فى المجتمع العربى والأدب العربى إلى هذا الوقت ، فقد كانت هناك أصوات تتردد لإيقاظ القومية العربية ، ولإثارة العرب ضد الترك ، مثل إبراهيم اليازجى المتوفى سنة ١٩٠٦ . فقد أخذ فى شبابه ينظم القصائد الهادفة إلى تلك الإثارة ، مثل قصيدته المشهورة التى يقول فيها .

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب   فقد طمى السيل حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالآمال تخدعكم   وأنتمُ بين راحات القنا سُلب ؟
كم تُظلمون ولستم تشتكون ، وكم   تُستغضبون فلا يبدو لكم غضب

ويقول فيها مخاطبا العرب أيضاً :

ألستم من سطوا فى الأرض ، واقتحموا   شرقا وغربا ، وعزُّوا أينما ذهبوا ؟
فما لكم ويحكم أصبحتمُ همَلا   ووجه عزكم بالهـون منتقب ؟
لا دولة لكمُ يشتد أزركم   بها ، ولا ناصر للخطب ينتدب
أقداركم فى عيون الترك نازلة   وحقكم بين أيدى الترك مغتصب

وكان هناك صوت عبد الرحمن الكواكبى صاحب « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » فقد دعا إلى خلافة عربية ، وأطال التمجيد فى العرب .

وكان هناك صوت نجيب عازورى الذى أصدر كتابه « يقظة الأمة العربية » سنة ١٩٠٥ ، وصوت نجيب الحداد الذى ردد قوله :

آن الأوان لأن أخاطر بالدم   من لم يخاطر بالدما لم يسلم

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٥ — ٨٧

ومن مظاهر اليقظة القومية العربية المبكرة التى ازدادت مع الأيام والأحداث قوة وتأثيراً ، إنشاء الكثير من الجمعيات التى تعمل لأهداف عربية ، مثل جمعية حفظ حقوق الملة العربية التى تألفت سنة ١٨٨١ ، والجمعية العربية المؤلفة من شبان العرب والأتراك بباريس سنة ١٨٩٥ ، وجمعية الإخاء العربى التى تأسست بالآستانة سنة ١٩٠٨ لإعلاء شأن الأمة العربية ، والمنتدى العربى بالآستانة سنة ١٩٠٩ ليكون مثابة للشبان العرب ، وجمعية الفتاة بالآستانة التى كانت للعرب مثل جمعية الاتحاد والترقى للأتراك ، وجمعية العهد التى تأسست بالآستانة سنة ١٩١٣ للعمل على الاستقلال الداخلى لبلاد العرب .

ومن هذه الجمعيات ما تألف فى مصر ، مثل الجمعية القحطانية سنة ١٩٠٩ ، وكانت جمعية سرية لتوحيدصفوف الأمة العربية ، والجامعة العربية سنة ١٩١٠ لتحقيق الاتحاد الحلفى بين أمراء الجزيرة العربية ، وحزب اللامركزية سنة ١٩١٢ لبيان حسنات الإدارة اللامركزية فى السلطنة العثمانية .

ومن هذه الجمعيات ما تألف فى بيروت ، مثل الجمعية الإصلاحية سنة ١٩١٢ ، وهى تشبه حزب اللامركزية السابق ، ومن هذه الجمعيات ما تألف فى باريس مثل المؤتمر العربى العام الذى عقد فى حزيران (يونيه) سنة ١٩١٣ وضم وفوداً عربية كثيرة [١] .

* * *

ومضت الأيام تباعاً والروابط العثمانية العربية تتعرض للضعف والوهن يوما بعد يوم ، ووقعت من حكام الأتراك سلسلة من الأخطاء زادت الجفوة بين الفريقين حدة ، حتى كتب السيد محمد رشيد رضا فى يناير سنة ١٩١٠ مقالا طويلا عنوانه « العرب والترك » ، وأخذ فى هذا المقال يعدد هفوات الأتراك وأخطاءهم نحو العرب ، ومنها أن الترك بدءوا يفاخرون العرب فى بعض ما يكتبون ، وأهملوا تقدير المجاهدين فى سبيل الدستور من أحرار العرب

---

(١) الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث ، ج ١ ص ٩٤ ملخصا عن كتاب الثورة العربية ج ١ ص٧ ــ ٤٩

وأسرفوا فى عزل أبناء العرب من الوظائف . وجعلوا المرافعات فى محاكم الولايات العربية بالتركية ، مع جهل الناس بها غالباً ، وجعلوا اللغة العربية فى المدارس الإعدادية اختيارية كاللغتين الأرمنية والرومية ، ونقصوا عدد الأعضاء العرب فى مجلس الأعيان ، وفرقوا بين التركى والعربى فى المعاملة ، إلى غير ذلك من الأسباب[1] .

ولا يمكننا أن نتجاهل أن الأيدى الاستعمارية كانت حريصة على فصم الروابط القائمة بين العرب والترك ، لا حباً فى العرب ، ولا حرصاً على استقلالهم ، ولكن طمعاً فى تمزيق السلطنة العثمانية الواسعة الرحاب . وتطلعاً إلى احتلال البلاد العربية . وهذا ماتحقق مع شديد الأسى ، وما حذر منه شكيب مرات قبل أن يقع . والأستاذ المقدسى يقرر أن هذه الأيدى الاستعمارية « كانت ترمى إلى تفكيك عرى الدولة العثمانية ، وفصل الأقطار العربية لأغراض استعمارية . ولا نشك أنها سعت فى تنشيط الجمعيات وحمايتها إذ رأت فيها أو فى بعضها ما قد يوصلها إلى هدفها المنشود »[2] .

* * *

واشتعلت نار الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، حينما كانت « العلاقات التركية العربية تجتاز مرحلة انتقال محفوف بالحيرة والتردد »[3] .

وانحازت الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا تحارب معها الحلفاء ، وعينت تركيا القائد أحمد جمال باشا قائد الفيلق الرابع من الجيش العثمانى والياً على سورية ولبنان وفلسطين والحجاز ، فبغى وطغى ، وألجم الألسنة وأرهب الناس ، وحملهم على النفاق وترديد المدائح . وكان يمثل النزعة الطورانية بأقسى صورها وتعصبها ، وهو من جماعة « الاتحاد والترقى » .

وكانت تركيا قد أعلنت الأحكام العرفية . وقيدت الحريات بقيود ثقيلة ،

(١) مجلة المنار ، المجلد الثانى عشر ، مقال (العرب والترك)
(٢) الاتجاهات الأدبية ، ج ١ ص ٩٥
(٣) محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ٢٠٨

عاونت على زيادة كراهية العرب للترك ، وزاد الطين بلة أن جمال باشا انتهز فرصة إلغاء تركيا للامتيازات الأجنبية ، وعمد إلى تفتيش دور القنصليات المعادية فى بلاد العرب . ومنها دار القنصلية الفرنسية فى بيروت ، وكان ذلك سنة ١٩١٦ . وهناك عثروا على وثائق سرية كشفت عن وجوه من نشاط الجمعيات العربية ، والكثير من زعمائها وأعضائها ، فسارعوا بالقبض على من وجدوه من هؤلاء بإشراف جمال باشا ، وتمكن فريق من الأحرار المطلوبين من الفرار إلى أوربا أو مصر .

ووُجهت إلى هؤلاء الأعضاء والزعماء تهمةُ الخروج على الدولة ، واحيلت أوراقهم إلى « الديوان الحربى » ، وحوكموا فى « عاليه » محاكمة صورية ، وحكم بالموت شنقاً على ثلاثين من الأحرار ، كما صدر الحكم غيابياً بالموت شنقاً على نحو ستين ، وعوقب آخرون بالنفى أو السجن .

ونُفذ حكم الشنق الباغى فى بيروت ودمشق صباح اليوم السادس من أيار (مايو) سنة ١٩١٦[1] .

وكان هذا الشنق آخرَ خنجر تحمله صبرُ العرب من جمال باشا الذى اكتسب من وراء جرائمه تلك لقب « السفاح » ، فكانت بعده ثورة العرب .

ولكى نتبين مدى الإرهاب الذى بثه فى سورية ولبنان نطالع رسالة كتبها شكيب فى ١١ من إبريل ١٩١٩ م إلى صديقه الأستاذ على الغاياتى ، يذكر فيها من ذكريات جمال باشا السفاح أنه كان يغار من أنور القائد العثمانى ، وأن أنور لما زار لبنان أثنى عليه شكيب ، فغضب جمال ، فاضطر شكيب — وهو أمير من بنى أرسلان — أن يرضيه ، فنوه به فى بعض خطبه بعبارات ثناء ، ويعلل شكيب ذلك بأنه كان يقصد إرضاء جمال خوفا على الجماعة الذين كانوا موقوفين فى (عاليه) وكانوا نحو سبعين ، وهم الذين شنق جمال منهم طائفة ، كما

---

(١) شعراء الحماسة والعروبة فى الشام ، ص ٥٣ ، والاتجاهات الأدبية ج ١ ص ١٠٧

يذكر شكيب أنه أثنى على جمال لينقذ أخاه « عادل » الذى كان متهوراً ، والذى طعن على جمال باشا فى مجلس النواب العثمانى .

ويذكر شكيب فى الرسالة أيضاً أن جمال باشا منعه سنتى ١٩١٤ و ١٩١٥ من الخروج من لبنان ومن السفر إلى الآستانة . مع أنه كان عضواً فى مجلس « المبعوثان » ، ولكن شكيب فى أواخر سنة ١٩١٦ خرج مع أسرته إلى استنبول وأقام بها دون استئذان[١] ، وكأنه « فر بجلده » كما تقول العامة .

فإذا كان هذا حال الأمير شكيب أرسلان ، فما يكون حال سواد الشعب حينئذ ؟ .

ويذهب أكثر من باحث إلى أن مأساة الشنق كانت سبباً فى تعجيل الشريف حسين بن على أمير مكة — الذى كان يفاوض الحلفاء سراً — بإعلان الثورة ضد الأتراك . ودخول العرب فى صف الحلفاء فى شهر حزيران (يونيه) ١٩١٦ ، أى بعد شهر من تعليق الشهداء على المشانق[٢] . ونستطيع أن نقول إن المأساة كانت أقوى تمهيد لإعلان تلك الثورة .

ويقول الأستاذ ساطع الحصرى : « وقد استمر جمال باشا فى هذه الأعمال الإرهابية ،دون أن يلتفت ، لا إلى الملاحظات التى أبداها بعضُ رجال الدولة ، ولا إلى النصائح التى أسداها الشريف حسين .

ومن المؤكد أن الشريف حسين — الذى كان عندئذ أمير مكة المكرمة — أوفد إلى جمال باشا ابنه فيصل — الذى كان عندئذ نائباً عن الحجاز فى مجلس المبعوثان العثمانى — ليلتمس منه الكفَّ عن سياسة الإرهاب والإعدام . ولكن جمال باشا لم يعبأ بذلك أبدا[٣] » .

---

(١) مجلة منبر الشرق ، عدد ٣٠ من يناير ١٩٥٣ ، وعدد ٦ من فبراير ١٩٥٣ — مقالات (ركن الذكريات) لعلى الغايانى

(٢) شعراء الحماسة والعروبة فى الشام ص ٥٤

(٣) محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ٢١٢

ومعنى هذا أنه قد أعذر من أنذر ، ولم يبق إلا الثورة !

وقد أعلن الشريف حسين الثورة ضد تركيا فى الثانى من حزيران (يونيه) ١٩١٦ ، بعد أن لم يبق مزيد من الكراهية بين الترك والعرب ، وبعد أن استطاع الحلفاء وفى طليعتهم بريطانيا جذب الحسين إلى صفهم بوعود خلابة ، خلاصتها أنهم سيجعلونه ملكا للعرب إذا انتهت الحرب بنصرهم ، فأعلن الاشتراك فى الحرب إلى جانب الحلفاء ، وأصدر منشورا بذلك ذاكرا فيه أسباب ثورته ، ومنها اضطهاد الترك للغة العربية ، وقتلهم نوابغ النهضة القومية ، وما قاموا به فى البلاد العربية من نفى وأسر ومصادرة ، وغير ذلك من الأعمال المنكرة .

ورفض شكيب الاشتراك فى الثورة وعارضها ، وجعل يردد أن هذه الثورة ستكون وبالا على قومه ، وأن الاستمرار فيها انخداع بالمستعمرين الذين يضمرون للترك والعرب على السواء النية السوداء .

وكان موقف شكيب حينئذ عصبياً لا يحمد عليه ، فقد كان ضد التيار العام ، وخارجا على رأى الأكثرية ، وباديا فى صورة من يريد أن يكون عثمانيا أكثر من بنى عثمان ! . وإن تكن الأحداث قد جرت بعد ذلك بتحقيق ما توعد به وحذر منه ! .

واشترك فى الثورة سوريون وعراقيون . لأن الحسين أعلن أنها « عربية تشمل كل عربى » . وقد حاول الحكام الأتراك بطبيعة الحال القضاء على الثورة وتشويهها وتجريح رجالها ، ولكنها استمرت برغم العوائق والضوائق .

وفى ٣ من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٨ دخل الجيش العربى دمشق دخول الظافرين بقيادة الأمير فيصل بن الحسين ، بعد أن انسحبت الجيوش التركية من البلاد العربية ، وفى ٢٣ من الشهر نفسه احتفل العرب برفع العلم العربى فى المكان الذى شنق فيه الشهداء بدمشق سنة ١٩١٦ .

ووضعت الحرب أوزارها عقب ذلك بأيام قليلة ، وتطلع العرب إلى تحقيق الوعود التى مناهم بها الحلفاء ، فلم يجدوا منها شيئا ، بل وجدوا جيوش الحلفاء

تحتل ديارهم . وشاعت الأنباء عن معاهدة « سايكس — بيكو » القاضية باقتسام الحلفاء أرض العرب ، وذهب الأمير فيصل باسم والده واسم العرب إلى مؤتمرات الصلح ليطالب بحقوق بلاده ، ولكنه لم يبلغ مرادا . إذ رحل فيصل فى ٢٢ من نوفمبر سنة ١٩١٨ لتمثيل الحجاز فى مؤتمر الصلح . وما كاد يصل فرنسا حتى صارحه الفرنسيون بالعداوة . وأخذوا يحذرون بريطانية الوقوع فى « حبائل الوحدة العربية التى تعد خطراً على مصالح انجلترا وفرنسا » ورحل بعد ذلك فى سبتمبر ١٩١٩ إلى انجلترا . فوجدها قد تأثرت بتحريض فرنسا فتضامنت معها وردت فيصل رداً غير جميل ، ووصلت بعثة « كراين » الأمريكية سورية لتستطلع رأى أهلها باسم مبادى الرئيس « ويلسون » فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٩ . فقابلتها مظاهرات السوريين منادية بالاستقلال .

واجتمع المؤتمر السورى عقب ذلك ، وقرر عدم السماح للجيش الفرنسى بالتوغل فى أرض سورية . وفى كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٩ أصدر المؤتمر قراراً بجعل الخدمة العسكرية إجبارية فى سورية . وفى ٨ من آذار (مارس) سنة ١٩٢٠ أعلن المؤتمر استقلال سورية ، ونادى بالأمير « فيصل » ملكا دستوريا عليها[1] .

ولكن عرش فيصل لم يدم فى سورية طويلا ، ففى الرابع والعشرين من شهر تموز (يوليه) ١٩٢٠ تقدمت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال « غورو » لاحتلال دمشق ، تنفيذاً لاتفاق الحلفاء الذى يقضى بتطبيق نظام « الانتداب » على بلاد الشام ، بعد تقسيمها قسمين : فالجزء الشمالى يكون للفرنسيين ، والجزء الجنوبى يكون للانجليز . ووقفت فى وجه القوات الفرنسية قوات عربية قليلة العدد والسلاح ، وفى هضاب « ميسلون » على بعد خمسة وعشرين كيلو متر من دمشق إلى جهة الغرب نشب القتال بين الجانبين . وانتصرت القوات الفرنسية لضخامة عددها وكثرة سلاحها . وسقط « يوسف العظمة »

---

(١) شعراء العروبة والحماسة فى الشام ، ص ٦٧ و ٦٨ ومحاضرات عن سورية من الاحتلال حتى الجلاء ، ص ٥ و ٦

قائد الجيش العربي ، ووزير الدفاع في الحكومة العربية ، شهيداً في المعركة . ودخل الفرنسيون دمشق ، وأرغموا فيصل وصحبه على مغادرتها[1] ، فترك فيصل العرش مرغما ، واحتفل بعد ذلك بالمناداة به ملكا على العراق في ٢٣ من آب (أغسطس) ١٩٢١ بعد استفتاء شعبي .

* * *

ولم يقف الاستعمار عند تقسيم الشام إلى قسمين : شماليّ وجنوبي ، بل نشاهد مع الأسف أنه خلال الأشهر الأخيرة من سنة ١٩٢٠ والأشهر الأوائل من سنة ١٩٢١ أنشئت خمس دويلات داخل الدولة العربية السورية التي لفظت أنفاسها بعد يوم « ميسلون » ، وهذه الدويلات هي : دولة حلب في أقصى الشمال ، ودولة شرق الأردن في أقصى الجنوب ، ودولة جبل الدروز . ودولة دمشق ، ودولة العلويين ، وكانت دولة شرق الأردن وليدةَ الانتداب البريطاني ، وأما بقية الدول فكانت وليدةَ الانتداب الفرنسي[2] .

ومن ناحية أخرى نرى أن ابن سعود أتم في سنة ١٩٢١ سيطرته على « نجد » ، وقضى على إمارة آل الرشيد ، واستولى على القسم الشمالي من « العسير » تمهيداً لإتمام السيطرة عليه في سنة ١٩٢٦ ، والقضاء على إمارة السيد علي الإدريسي .

وفي نهاية سنة ١٩٢٥ استولى ابن سعود على الحجاز الذي كان يحكمه الحسين بن علي ، وكانت قد دارت حرب بين القوات السعودية الوهابية والقوات الحجازية الحسينية ، وبعد أشهر قليلة من بدء الحركات الحربية بين الفريقين اضطر الملك الحسين بن علي إلى التنازل عن عرشه لنجله الأكبر « علي » فاستعصم بجدة ، ولكنه لم يستطع الدفاع طويلا ، فاضطر إلى مغادرة الحجاز ، والالتجاء إلى العراق حيث كان أخوه فيصل الأول[3] .

---

(١) المرجع السابق ص ٨٢ ، ومحاضرات عن سوريا من الاحتلال حتى الجلاء ، ص ٣

(٢) العروبة أولا ، ص ١٨ و ٢٢

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٦

وقد استطاع ابن سعود بعد ذلك إدخال « العسير » كلها تحت سيطرته سنة ١٩٣٠ ، وقد أدى هذا الاستيلاء إلى نشوء مشكلات عدة وأزمات شديدة بين ابن سعود والإمام يحيى ملك اليمن ، لأن البلاد المعروفة باسم « العسير » كانت متاخمة لليمن ، فكان من الطبيعي أن يقلق جانب الإمام لدخول هذه البلاد تحت حكم السعوديين ، فتنفصل بذلك عن اليمن بصورة نهائية ، كما حدثت بين الملكين خلافات حول تحديد حدود مملكتيهما[1] .

وقد أدت هذه الخلافات إلى حدوث حرب بينهما سنة ١٩٣٤ ، ولكن هذه الحرب لم تستمر طويلا ، إذ عُقد صلح بين الملكين عن طريق وفد عربي كان الأمير شكيب أرسلان عضواً بارزاً فيه .

***

وبعد يوم ميسلون (٨ من آذار ١٩٢٠) قضت سورية خمسَ سنوات عجاف ، فالمحتل يقسم الدولة إلى دويلات ، وينشر فيها الخوف والرعب ، ويحتال ليخمد ثوراتها ويفرق صفوفها ، ولكن الشعب العربي في بلاد الشام أعلن ثورته على الفرنسيين سنة ١٩٢٥ ، واستمرت الثورة سنتين ، وسقط فيها آلاف الشهداء بعد أن ضربوا أمثلةً رائعة للبطولة .

ودمر الفرنسيون بعضَ أحياء دمشق بالمدافع في آيار (مايو) ١٩٢٥ في عهد المندوب السامي الفرنسي الجنرال « سارای » .

وعاد الشعب إلى الثورة في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٢٩ في عهد المندوب السامي الفرنسي « دي جوفنيل » . ولكن فرنسا استطاعت أن تخمد الثورة مرة أخرى .

وفي سنة ١٩٣٧ دُعي الوطنيون لتأليف وزارة تتولى مفاوضة الفرنسيين ، وكان من نتيجة ذلك أن عقدت معاهدة بين الطرفين ، ولكن الفرنسيين نقضوها عام ١٩٣٩ .

---

(١) المرجع السابق ، ٣٧ و ٤٠

وقامت الحرب العالمية الثانية ، فلأت الدنيا وشغلت الناس . وفى سنة ١٩٤٣ طالب السوريون بالحرية التى وعدهم بها الحلفاء ، وجاء شكرى القوتلى إلى الحكم بعد إجراء انتخابات .

ولكن فى ٢٩ من مايو ١٩٤٥ ضربت فرنسا المدنَ السورية بالقنابل ، وكان الجيش الفرنسى مازال فى البلاد بحكم المعاهدة ، وثارت سورية ، وكانت النتيجة أن جلا الفرنسيون عن سورية بلا قيد ولا شرط فى ١٧ من نيسان (إبريل) سنة ١٩٤٥[١] .

هذا ما يتعلق بسورية ، وأما ما يتعلق بلبنان ففى سنة ١٩٢٦ وضع نظام جمهورى للبنان ، ولكن هذا النظام وقف العمل به سنة ١٩٣٢ ، وفى سنة ١٩٣٤ تكون مجلس نيابى محدود ، وفى تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٩٣٦ عقدت معاهدة لبنانية فرنسية ، تمنح لبنان استقلالا فى مدى ثلاث سنوات ، ولكن مجلس النواب الفرنسى لم يقر هذه المعاهدة .

وفى سنة ١٩٤١ وعدت فرنسا لبنان بالحرية والاستقلال عقب تذمر بين أبناء لبنان ، وفى الأول من يناير سنة ١٩٤٧ تم جلاء الفرنسيين نهائياً عن لبنان[٢] .

إن فرنسا خلال سنوات الاحتلال لم تدخر وسعاً فى إخماد روح القومية العربية فى سورية ولبنان ، ونشر النعرة الطائفية والإقليمية ، ولكن كانت هناك عوامل أقوى لبث روح القومية ، منها تطور وسائل المواصلات . واصطياف العرب فى لبنان ، وانتشار الصحافة والإذاعة والأدب والتمثيل ، وهذه وسائل يسميها الأستاذ ساطع الحصرى « عوامل غير قصدية » ، ويضيف إليها « عوامل قصدية » فيقول :

« قام جماعة من القوميين يؤلفون الأشعار والأناشيد ، ويلقون الخطب

---

(١) الوحدة فى الشرق ، ص ١٠٢

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٦

والمحاضرات ، وينشرون الكتب والمقالات ، لبث الفكرة القومية ، وإيقاظ الشعور القومى ، ولمحاربة النزعات الإقليمية مباشرة .

وفضلا عن ذلك أخذ القوميون يؤلفون الجمعيات ويؤسسون النوادى لتوسيع نطاق هذه الأعمال ، وزيادة تأثيرها فى الناس .

كما أن بعض الحكومات أخذت على عاتقها مهمة نشر فكرة القومية العربية مباشرة ، فأدخلت فى مناهج مدارسها المختلفة الأبحاث التى تخدم الغاية المذكورة صراحة .

إن هذه الأعمال والمساعى كانت فى بادئ الأمر تنحصر داخل كل دولة على حدة ، إلا أنها صارت بعدئذ تجمع رجالا من دول مختلفة يعملون فى جمعيات دائمة ، أو مؤتمرات موقوتة .

وفى الأخير صارت الدول العربية نفسها تشترك فى أمثال هذه الأعمال والمساعى .

وفى هذا الطور من القضية العربية أخذت مصر تؤدى دوراً هاما جدا[1].

ومما ينبغى تذكره أن مشاورات بدأت فى صيف ١٩٤٣ لإنشاء « الجامعة العربية » بعد أن أعلن المستر « إيدن » وزير الخارجية البريطانية أن بريطانيا لا تمانع فى قيام البلاد العربية بما يجمعها ويزيد من تعاونها لما بينها من صلات وروابط . وانتهت المشاورات بإصدار ميثاق جامعة الدول العربية فى ٢٣ من مارس سنة ١٩٤٥[2] . وقد شهد شكيب ميلاد الجامعة بالغبطة ، وتمنى أن تكون مرحلة بارزة فى إعزاز شأن العرب ، كما فرح كثيراً قبل ذلك باستقلال وطنه العزيز .

* * *

(١) محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ٢٢٩ و ٢٣٠

(٢) الوحدة فى الشرق ، ص ١٦

الحالة العلمية والأدبية :

هذا عن عصر شكيب من ناحية الأحداث السياسية والقومية . وأما من ناحية العلوم والآداب فقد كانت البلاد العربية خلال القرن التاسع عشر منصرفة عن العلم والأدب لقلة المدارس ، وندرة الكتب ، وعدم انتشار الطباعة العربية ، وفى مصر مثلا لم يكن يوجد تقريبا غير الجامع الأزهر الشريف ، وكانت سوق الشعر والأدب كاسدة ، ولكن الطباعة أخذت تنتشر ، والمدارس أخذت تنشأ ، وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانت حالة الآداب « كحالة الحدث الذى يدخل فى شبابه ، ويشعر بقوته ، فيحول أفكاره إلى عالم العلم ، ومنتدى الآداب[1] » .

ثم أخذت الصحف فى الظهور ، وتكونت جمعيات علمية ، وزاد عدد المدارس شيئاً فشيئا .

ويرى شكيب أن غزو إبراهيم باشا الذى انكفأ إلى مصر سنة ١٨٤٠ كان سبباً فى إثارة الانتباه الفكرى ونزعة التجدد فى سورية . يقول : « وجد السوريون — ولا سيما أهل الساحل منهم — ينشدون أسباب المدنية الغربية ، لما رأوا فيها من القوة والرفاهية ، وأنس المرسلون الأميركيون هذا الاستعداد فى أهل سورية ، فأسسوا فى بيروت كليتهم الشهيرة ، التى كانت النبراس الأول الذى استضاءت به سورية ، ولا يزال هذا النبراس يزهر فى آفاق الشرق إلى يومنا هذا . ورأت أمم أخرى (كالفرنسيين والألمان والطليان والروس) أن أرض سورية قابلة جداً لبذور المعارف . فبثوا فيها المدارس والكتاتيب ، وكل ذلك كان يبدأ فى بيروت ثغر الشام البسام . ففى بيروت والحق يقال ابتزغ زرع العلم العصرى ، وأخرج شطأه ، ثم انبث فى جميع الشامات ، ثم فيما جاورها ، واستغلظ واستوى على سوقه ، يعجب حتى الزراع الأوربيين أنفسهم[2] » .

---

(١) الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ، ج ١ ص ٦٩ و ٧٠ .

(٢) النهضة العربية ، ص ٨٠ . وشطء الزرع : فراخه المتفرعة منه .

ويرى شكيب أن النهضة — وإن كانت قد بدأت قبيل منتصف القرن التاسع عشر — لم تسر سيراً حثيثا إلا من بداية الربع الأخير من ذلك القرن تقريبا ، ولذلك يقول سنة ١٩٣٧ : « على أن النهضة الشرقية العربية وإن كان قد ذرّ قرنُها منذ قرن فأكثر ، لم تسر هذا السير الحثيث إلا فى الخمسين سنة الأخيرة التى شهدها كاتب هذه الأحرف بجميع صفحاتها ، وذلك لأنى بدأت بالكتابة فى الصحف ، وبمرافقة الحركة العملية فى سيرها منذ ٥٢ سنة متوالية ، فلى الحق إذاً بأن أدعى معرفة تاريخ هذه النهضة ، ومادخلت فيه من التطورات ، على قدر ما يستطيع خادم أمين للعلم زاول عمله فى مكافحة الجهل طوال مدة خمسين سنة ، دون أن يتخلف يوماً واحدا[1] » .

ومن ناحية الصحافة والطباعة نجد أنه فى المدة الواقعة بين سنتى ١٨٦٠ و١٨٨٠ — وهى عشرون عاما — وُجدت فى بيروت عدة جرائد ومجلات مثل : حديقة الأخبار ، والجنة ، والجنينة ، والجنان ، والبشير ، والنحلة ، والنجاح ، والنشرة الأسبوعية ، وثمرات الفنون .

ووُجدت أيضاً عدة مطابع تطبع الكتب العربية ، بعد أن كان طبعها محصوراً فى مطبعة بولاق بالقاهرة[2] .

ونلاحظ أن هذه الصحف والمجلات كانت فى لبنان ، فى حين لم يوجد فى سوريه حتى سنة ١٨٨٠ سوى جريدة رسمية للولاية باسم « سورية » وبعد ذلك بزمن طويل أصدر مصطفى واصف جريدة « الشام » ، وأصدر محمد كرد على جريدة « المقتبس » ، وكانت لحلب جريدة رسمية باسم « الفرات » ، نصفها تركى والآخر عربى .

ويقول الأستاذ عمر الدسوقى : « سبق السوريون فى بلادهم بإصدار صحف سياسية ، وصدرت (مرآة الأحوال) بحلب سنة ١٨٥٥ ، وإن لم تعمر أكثر من عام واحد ، ثم صدرت (حديقة الأخبار) ببيروت سنة ١٨٥٨ ، وظلت

---

(١) المرجع السابق ص ٩

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠

تصدر حتى سنة ١٩٠٩ ، وكانت يوماً ما لسان الحكومة الرسمى ، ثم خطت الصحافة خطوة أوسع فى سبيل الرقى بصدور (الجوائب) لصاحبها أحمد فارس الشدياق بالآستانة سنة ١٨٦٠ ، وقد طلعت على الناس بأسلوب جديد فى الكتابة ، وافتن صاحبها فى تحريرها وتخير موضوعاتها[١] .

وفى سنة ١٨٨٤ نظم أحد الشعراء أسماء الجرائد اللبنانية فى بيتى شعر قال فيهما :

ثمرات مقتطف الجنان بشيرها بلسان مصباح التقدم قائل
ظل المعارف وارف فى أرض بيرو ت ، ورهط الفضل فيها قائل

وبعد هذا أنشأ على بك ناصر الدين مجلة « الصفاء » التى صارت بعد ذلك جريدة سياسية ، وفى هذه المجلة نُشرت لشكيب أولُ مقالة صدرت من قلمه ، وذلك فى سنة ١٨٨٥[٢] .

وبعد إعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ كثر إصدار الصحف والمجلات فى الشام ، لأن الدولة العثمانية أعلنت حرية الصحافة بعد عهود مراقبة شديدة كانت فيها إدارة المعارف بالآستانة تنشىء القوانين الصارمة لتقييد حرية المطبوعات ، « ولم تزل تضايقها شيئا بعد شىء ، حتى بلغت فى ضغطها حداً لا يكاد يتصوره غير الذين قاسوا مضضه ، ولعل ذلك الضنك الذى بلغت به الروح التراقى كان من أقوى أسباب الانقلاب الأخير[٣] » .

ولكن إعلان حرية الصحافة فتح متنفسا واسعا للأقلام والآراء ، وإن كان هذا لم يدم طويلا ، بسبب النكسة الدستورية التى أعادت الأقلام إلى السكوت إلا قليلا . « فلما نشبت الحرب الكبرى كان ينشر فى سورية

---

(١) فى الأدب الحديث ، ج ١ ص ٦٣

(٢) النهضة العربية ، ص ١٥

(٣) الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ، ج ٢ ص ٦٣ ، والشيخ رشيد رضا يذكر أن من أسباب هجرته إلى مصر سنة ١٣١٥ هـ = ١٨٩٧ م رغبته فى إصدار صحيفة إصلاحية فى مصر ، وأنه لا يستطيع إصدارها حرة فى بيروت بسبب طغيان الاستبداد الحميدى ، كتاب السيد رشيد رضا ص ١٢٨

وفلسطين ثمانون جريدة ، موزعة بين بيروت ولبنان ودمشق وطرابلس واللاذقية وحمص وحماة وحلب وصيدا وحيفا ويافا والقدس ، وكانت تظهر فى هذه البلاد مجلات شهرية وأسبوعية لا تقل عن بضع عشرة مجلة ، ولا نجد لزوما لسرد أسماء جميع هذه الجرائد وهذه المجلات . وهذا أول دليل على سرعة الرقى العلمى فى سورية ، وليس فى الكلام أفصح من الأرقام ، فوفرة الجرائد دليل على وفرة عدد القراء ، ووفرة عدد القراء دليل على صدق عمل المدارس[1] . وكذلك تضاعف عدد المطابع مرتين وثلاثا ، وكانت تطبع الكتب والصحف .

* * *

وأما عن المدارس فى الشام فقد كانت فى أول الأمر قليلة العدد والنفقة والأساتذة ، ولكن المسيحيين نشطوا فى تأسيس مدارس الإرساليات والمدارس الطائفية ، وكانت هذه المدارس تعلم العربية وتعنى بها ، وكانت المدارس الرسمية تعلم التركية وآدابها ، فى حين كانت اللغة العربية فيها ثانوية ، وكانوا يدرسون القرآن الكريم بلا عناية ، وكان من نتيجة ذلك أن انصرف الكثيرون عن المدارس الرسمية إلى المدارس الخاصة .

وأنشأ المرسلون الأمريكيون كليتهم فى بيروت ، وتبعهم الفرنسيس والألمان والطليان والروس ، فبثوا الكتاتيب والمدارس ، مما كان أثره واسعا ، ومما اضطر الدولة العثمانية إلى فتح المكاتب الرشدية والإعدادية فى سورية[2] .

وكانت الإرساليات للبروتستانتية والكاثوليكية تتنافس فى إنشاء المدارس ببلاد الشام ، « ويروى أن الدكتور فانديك رئيس مبشرى الأمريكان وأقدم أساتذة الجامعة الأمريكية ببيروت عند تأسيسها كان يقول : أنا ذاهب إلى فتح مدرستين فى القرية الفلانية . وإذا قيل له : إن هذه القرية لا تتحمل

---

(١) النهضة العربية ص ١٦

(٢) محاضرات عن الأمير شكيب ص ، ٦ و ٧

مدرستين ، قال : أنا سأفتح مدرسة واحدة فقط ، ولكنى متأكد من أن اليسوعيين سيأتون من ورائى بعد مدة وجيزة ليفتحوا هناك مدرسة ثانية[1] .

وقد أنشئت بدمشق مدرسة التجهيز والمعلمين سنة ١٣٠٤ هـ = ١٨٨٢ ، وفى سنة ١٣٢١ = ١٩٠٠ أنشئت مدرسة طبية بدمشق . وأنشئت فى لبنان مدرسة عين ورقة سنة ١٧٨٩ ومدرسة الكلية الإنجليزية الأمريكية للبنات سنة ١٨٦١[2] .

وكانت أول مدرسة داخلية فى بيروت هى المدرسة الوطنية لمؤسسها المعلم بطرس البستانى ، ثم أخذت الطوائف تؤسس مدارس داخلية لها فى بيروت ، فالروم الكاثوليك أسسوا مدرسة البطريركية ، والموارنة مدرسة الحكمة ، واليهود المدرسة الإسرائيلية ، واليسوعيون الكلية اليسوعية لمناظرة الكلية الأمريكية ، والمسلمون المدرسة السلطانية ، وأسست فرنسا فى « كسروان » مدرسة « عينطورة » ، ثم أسس أساقفة الموارنة مدارس لطائفتهم فى بلاد مختلفة من لبنان ، وأسس الأمير ملحم أرسلان مدرسة لطائفة الدروز فى قرية « عبية » سنة ١٨٦٢[3] .

ولاشك أنه كان لانتشار المدارس أثر قوى فى بث التعليم ، وإشاعة الثقافة ، وإنعاش الحياة الأدبية .

* * *

وأما الشعر فحسبنا هنا أن نسمع شكيب يتحدث عنه سنة ١٩٣٧ . فيقول :

« لم يكن منذ خمسين سنة بمصر والشام والعراق والمغرب معشار العدد الذى نجده من هذه الطبقة الراقية فى الأدب منذ خمسين سنة أو ستين سنة فما قبل . وكان إذا نبغ شاعر أو بـرع كاتب ضرب به المثل لتفرده وخلو الجو من حوله ، والحال أنه لو نشرته اليوم من قبره ، وعرضته فى الجمع لوجدت

---

(١) محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ١٦٨ .

(٢) فى الأدب الحديث ، ج ١ ص ١٠٠ .

(٣) النهضة العربية ، ص ١٣ ، ١٤ .

أمثاله يعدون بالعشرات . وإن كانت لا تزال له طلاوة ، فهذه الطلاوة لا ترتفع به إلى صفوف العبقريين ، وإنما تجعله فى صفوف المجيدين . وقد كنا فى سورية لا نعرف شاعراً أحسن من نصيف اليازجى اللبنانى الذى نبغ فى بيروت ، وصارت له تلك الشهرة الطائرة باستحقاق ، وهو لو وجد فى فى زماننا هذا ما كان إلا واحدا من جماعة .

وكان فى بيروت من الشعراء المجيدين عمر الأنسى البيروتى ، يقرأ الإنسان شعره بلذة . وكان قبل الأنسى واليازجى أمين الجندى وبطرس كرامة ، كلاهما من حمص . ولهما قصائد كسبا بها شهرة لا تزال لهما إلى اليوم ، ولو أنهما عاشا فى هذا العصر لم تكن لهما هذه الشهرة بالرغم من إجادتهما وعلو طبقتهما .

وقد سأل الأمير بشير الشهابى أمير لبنان فى وقته الشيخ أمين الجندى عن المعلم بطرس كرامة قائلا له : مانسبة المعلم بطرس إليك فى الشعر ؟ . فأجابه : نسبة الثعلب إلى الأسد . ولم يكن هذا الجواب صحيحاً ، لأن لبطرس كرامة من الشعر — ولا سيما فى الغزل والنسيب — مالا يقل رونقاً عن شعر الجندى .

وكان فى بغداد ثلاثة شعراء أو أربعة اشتهرت أسماؤهم فى بلادنا . مثل عبد الباقى العمرى وصالح التميمى وعبد الحميد الموصلى وعبد الغفار الأخرس ، وكان أكثرهم شهرة عبد الباقى العمرى وعبد الحميد الموصلى هنا ، بسبب مراسلتهما مع نصيف اليازجى ، كما أن شهرة صالح التميمى كانت بسبب المناقشة التى وقعت بينه وبين بطرس كرامة :

وهذه الطبقة — وإن كانت تعد من الطبقة العالية فى الأدب — فإن الذين جاءوا بعدها قد ردوها إلى الوراء ، فبعد أن كانت من المجلّين صارت من المصلين ، اللهم إلا إذا حسبنا الشاعر الأرزى الذى لا يلز[1] هؤلاء فى قرنه ، ومن قبله ابن سعتوق الذى كان يضارع الشعراء الأولين[2] » .

---

(١) لا يلز : لا يشد ولا يربط ، والمجلى : أول المتسابقين . والمصلى : ثانى المتسابقين

(٢) النهضة العربية ، ص ٣٣ و ٣٤

وكانت دمشق — فى شباب شكيب — تشهد حلقات دبية ، أيدور فيها البحث حول العربية وفحول شعرائها وأدبائها ، وكان اللبنانيون الأدباء يفدون إليها وعلى رأسهم شكيب ، ليفيدوا من هذه الحلقات علماً وأدباً ونظرة واسعة إلى السياسة العربية .

وكذلك كانت مصر ميداناً لجياد القرائح السورية — كما يعبر شكيب نفسه — فالذين تخرجوا فى بيروت ظهروا وسار ذكرهم فى مصر ، وخرّجت معاهدُ مصر كثيراً من أبناء سورية فى العلوم الدينية وغيرها ، فكان القطران يتعاونان ، واختلط أبناؤهما ، إذ انتقل كثير من السوريين إلى مصر ، وأقاموا بها طويلا ، أو ترددوا عليها مراراً[1] .

وإذا كان الشام قد زامل مصر وسابقَها فى مجالات الأدب والشعر والصحافة والطباعة ، فإن صاحب كتاب « فى الأدب الحديث » يلاحظ أن اتجاه نهضة مصر كان علمياً أكثر منه أدبياً ، فى حين كان اتجاه نهضة الشام أدبياً أكثر منه علمياً . يقول : « على أن النهضة السورية اتجهت وجهة أدبية من أول أمرها بخلاف النهضة المصرية ، وقد وقفنا على الدوافع التى حولت نهضة مصر إلى وجهة علمية[2] ، أما الأسباب التى جعلت نهضة سورية أدبية فهى أن المبشرين كانوا حملة مشاعل تلك النهضة فى أول الأمر ، وكان همهم نشر التعاليم الدينية طبقاً للمذاهب المسيحية الغربية ، وقد عنوا بترجمة التوراة ، وظل الجدل الدينى مسيطراً على الصحافة السورية ومجالس الأدب ثمة رَدَحاً طويلا من الزمن ، ولعل هذا يعلل لنا سبق السوريين فى الصحافة وإتقانهم لإخراجها وتبويبها ، وقد ظهرت ثمرة هذا الميل الأدبى عند السوريين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر[3] » .

وأما من جهة اللغة فقد كانت التركية هى اللغة الرسمية فى الدولة العثمانية

---

(١) محاضرات عن الأمير شكيب ص ٧

(٢) يقصد أنه تحدث عنه فى كتابه قبل ذلك

(٣) فى الأدب الحديث ، ج ١ ص ٦٥

ومن بينها البلاد العربية . وكانت المعاملات الرسمية فى المحاكم ، وفى جميع دوائر الدولة تجرى باللغة التركية ، كما كان التعليم فى جميع المدارس الرسمية يجرى باللغة المذكورة .

ولا شك أن هذا « التتريك اللغوى » قد سبب الكثير من المضايقات والمتاعب ، إذ كان العرب محرومين من مدارس خاصة بهم ، فكان لا بد لهم من دخول المدارس التركية ، واللغة العربية فيها ضئيلة المقدار مهينة القدر ، وكان من نتائج ذلك الوضع ظاهرة لافتة للنظر ، وهى أن إجادة تعليم اللغة العربية صارت من خصائص المدارس المسيحية ، كما كانت المدارس الأجنبية أكثر اهتماما باللغة العربية من المدارس الرسمية بوجه عام[1] .

* * *

وحينما انعقد المؤتمر العربى الأول فى باريس سنة ١٩١٣ كان القرار الخامس من قراراته هو : « اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة فى مجلس النواب العثمانى ، ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية فى الولايات العربية » . ولما حاولت الدولة التفاهم مع زعماء المؤتمر ، وعقدوا لذلك اتفاقية بين الطرفين كانت أول مادة فى الاتفاقية ما يلى : « يكون التعليم الابتدائى والإعدادى (أى الثانوى) باللغة العربية فى جميع البلاد العربية ، كما يكون التعليم العالى أيضاً بلغة الأكثرية ، وإنما يكون تعليم اللغة العثمانية إجباريا فى المدارس الإعدادية[2] .

الحالة الاجتماعية :

وأما عن الحالة الاجتماعية فإن الدكتور محمد سامى الدهان يصورها فى المرحلة الأولى من عصر شكيب ، وهى ما بين سنتى ١٨٦٩ و ١٩٢٠ بقوله :

« وأما الحالة الاجتماعية فكانت فى وضع لا يشرف الدولة العثمانية

---

(١) محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ١٨٢ و ١٨٣

(٢) المرجع السابق ، ١٩٢ و ٢٠٣

من حيث التخلف الحضارى ، وجمود العقل التركى ، وانتشار الارتزاق غير المشروع . وفشو الرشوة ، وتضييق الرقابة الخانقة على العرب ، والجاسوسية الحادة المنحطة . وأصبحت مؤهلات التوظيف فى دوائر الحكومة هى المهارة فى التجسس والتذلل والكذب والرياء . ولم تعد العفة والاستقامة من أسباب التقدير والإكبار . وكانت نفقات العاصمة المركزية تبتلع موارد الدولة ، وشبكة الجاسوسية تكلف مبالغ طائلة ، لذلك كان على ولاة الأطراف أن يستعيدوا المبالغ التى صرفوها فى الوصول إلى مراتبهم ، وأن يرسلوا من أموال هذه الولايات ما يسد عجز العاصمة فى دفع رواتب العاصمة قبل كل عمل . وكانت الخزائن المحلية للولايات تعجز عن رواتب الموظفين فى أوقاتها وكثيراً ما كانت تتراكم عدداً من الشهور »[1] .

وفى هذا الجو الخانق الفاسد المؤلم عاش شكيب أكثر من نصف عمره . وتأثر به من غير شك ، ولكن الحرب العالمية الأولى كانت فيصلا بين عهدين ، فبانتهائها انتهت الظلال السود للعهد السابق ، وبدأت فى البلاد العربية حركات ونهضات وثورات فى مجالات السياسة والأدب والاجتماع ، وواصل العرب كفاحهم فى سبيل الحرية ، وظهرت تيارات الوطنية والاستقلال ، وتوالت الثورات مابين ارتفاع وانخفاض[2] ، وكان لكل هذا أثره فى الحياة الاجتماعية وقامت الحرب العالمية الثانية ، ثم انتهت والعرب مثابرون على طلب حريتهم ، يسقط منهم من يسقط من الشهداء ، ثم جاء الفجر ، وأقبلت طلائع النور ، واستقلت سورية ولبنان ، واستقلت من بعدهما بلاد عربية أخرى ، ومازال شكيب وثيق الارتباط بقضايا بلاده ، يسهر لها ، ويقوم نهاره عليها ، ويدافع من أجلها ، ويكتب فى نصرتها ، وكان فى غربته يأمل أملا واحداً ، هو أن يدخل وطنه وليس فيه علم لدولة أجنبية ، وقد حققت له الأقدار أمنيته ، فعاد إلى لبنان فى أواخر سنة ١٩٤٦ ، ليختتم حياته الطويلة بالأيام القليلة التى قضاها قبل رحيله من الدنيا .

(١) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ٥ و ٦

(٢) المرجع السابق ، ص ٨ و ٩

الباب الثاني
حياة شكيب أرسلان

حياة شكيب

موطنه وأسرته :

« الشوف » مقاطعة من مقاطعات لبنان . وفى هذه المقاطعة توجد بلدة « الشويفات » ، وهى تبعد عن « بيروت » قرابة عشرة أميال ،وهى فوق ربوة قريبة من البحر ، ويقول عنها شكيب سنة ١٩٣٥ إنها « قصبة كبيرة ، أهلها نحو من سبعة آلاف نسمة ، بناها الأمير مسعود الأرسلانى ، ومن ذلك الوقت أى من ألف ومائة وتسع وستين سنة بالحساب العربى — هى مركز العائلة الأرسلانية ، بدون انقطاع ، وهى مسقط رأس محرر هذه السطور عفى عنه »[1]

فى هذه البلدة عاشت أسرة شكيب أرسلان وعاش أجداده من آل أرسلان ونسبه هو : شكيب بن حمود بن حسن بن يونس بن فخر الدين بن حيدر ابن سليمان بن فخر الدين بن يحيى بن مذحج بن محمد بن أحمد بن خليل بن مفرج ابن يحيى . .

ويستمر هذا النسب حتى ينتهى إلى الأمير أرسلان المتوفى سنة إحدى وسبعين ومائة للهجرة ، والذى ينتهى نسبه إلى الأمير المنذر الملقب بالتنوخى ، المتوفى سنة ثمان وسبعين (٧٨)[2]

فمن آل أرسلان هؤلاء ؟ .

---

(١) كتاب محاسن المساعى ، هامش ص ١٠١

(٢) روس الشقيق فى الجزل الرقيق ، ص ١٤٥ وما بعدها . وقد اعتمدت فى الحديث عن نسب شكيب وأجداده على سجل النسب الذى جعله شكيب ملحقا لديوان أخيه ، وذكر فيه تراجم الشهود الذين شهدوا على هذا النسب

إن كلمة « أرسلان » تركية معناها (الأسد) ، وكذلك معناها فى الفارسية ، وهذه اللفظة من جملة الكلمات التى انتقلت إلى العربية من قديم الزمن ، وسموا بها أعلاما[1]

ويقول عبد الله باشا فكرى عن الأمير شكيب كما جاء فى ديوان شكيب :

كمى من سلالة أرسلان ذؤابة قومه الأسد الهزبر

ويقول شارح الديون تعليقا على البيت : يشير إلى معنى أرسلان وهو الأسد ، وهى لفظة صار يسمى بها العرب مثل العجم[2] .

وآل أرسلان ينتسبون إلى التنوخيين الذين هاجروا من اليمن إلى العراق . وهم « من أعرق بيوتات الإمارة فى العرب ، وأعتقها نجاراً ، وأزكاها مغرساً ، وفى هذا البيت المعرق فى الشرق يستقر معدن من أكرم معادن الحسب الصميم والنسب الأصيل ، ترتقى أرومته إلى الملك المنذر بن الملك النعمان الشهير بأبى قابوس ممدوح النابغة الذبيانى .

وتاريخ هذا البيت مزدان كله طول مئات السنين بالمفاخر الأثيلة التى يتألق منها جانب كبير من ثروة تاريخ العرب والإسلام فى غربى سورية[3] » .

نجد هذه الأسرة (الأمير عون) هو شهيد موقعة (أجنادين) التى حدثت فى فتوح الشام ، فى السنة الثالثة عشرة للهجرة ، بعد أن حضر مع خالد بن الوليد من العراق إلى الشام لنجدة أبى عبيدة بن الجراح .

والأمير أرسلان بن مالك المنذرى هو الذى حارب صنائع الروم ومركباتهم

---

(١) شوق أو صداقة أربعين سنة ، ص ٤٧ ، وهم ينطقونها (أرسلان) و (رسلان) فيرفعون الألف للتخفيف ، انظر كتاب روض الشقيق ، هامش ص ١٤٦ . وفى المجلد الخامس من مجلة الزهراء سنة ١٣٤٦ هـ . مقالة عن (آل أرسلان) للأستاذ نجاح نويهض ، ومقال عن (نسب الأسرة الأرسلانية) بقلم شكيب

(٢) ديوان شكيب ، ص ١٩ . والكمى : البطل الشجاع ، والذؤابة : القمة وأعلى الشىء . والهزبر : من أسماء الأسد .

(٣) روض الشقيق ص ١٢ من مقال للاستاذ محب الدين الخطيب ، نقلا عن مجلة الزهراء .

فى لبنان وهزمهم ، وكان ذلك بأمر من الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور . ونزلوا فى جبل الدروز وأقاموا فيه .

يذكر الأمير شكيب فى ذلك مايلى نقلا عن إسحاق النميرى : «وكان قدومهم بأمر أمير المؤمنين المنصور الخليفة العباسى رحمه الله ، وكانوا قد قابلوه بدمشق لما قدم إليها ، وتوطنوا بجبال بلدتنا هذه (أى بيروت) ، وكان أول نزولهم بحصن وادى تيم الله بن ثعلبة[1] ، ثم بالمغيثة[2] ، ثم اعتزلوا المضارب وتفرقوا فى البلاد[3] » .

وفى الحروب الصليبية اشترك آل أرسلان فى مقاومة العدوان الصليبى ، وأبلوا بلاء حسنا ، ثم عاونوا دولة الخلافة فى فتوحها الإسلامية كفتح قبرص .

وكان من أبناء هذه الأسرة حكام وأمراء ، ومجاهدون وقادة ، وعلماء وأدباء ، حتى قيل فيهم :

وأمراء هذا البيت أمراء سيف وقلم ، وحملة علم وعلم[4] .

وقد ورث الأمير شكيب عن بيت الإمارة الذى نشأ فيه ماتوارثه رجاله من خصال أهمها الشجاعة والكرم ، والذود عن حياض الدين والوطن . والجمع بين العروبة والإسلام ، وتجلت فيه هذه الخصال ، واستطاع بماله ولسانه وقلمه وعلمه وفضله ان يكون « مضرب المثل بالنفس الخطيرة والهمة التى لاتغالب ، وبات بنفسه قلعة من أحصن قلاع العالم الإسلامى ، وغدا مجرد ذكر اسمه فى كل قطر من أقطار العالم الإسلامى رمزاً إلى ذلك النوع من الجهاد الذى خلص وصفاً لوجه الله والملة والوطن[5] » .

---

(١) ذكر شكيب روايات أخرى تفيد أنهم نزلوا بحصن بنى الجيش من وادى التيم .

(٢) هى — كما يقول شكيب — مكان فى سطح الجبل قبل الوصول إلى عين صوفر للسائر من دمشق إلى بيروت

(٣) روض التشبيق ، هامش ص ٢٣٤ .

(٤) روض التشبيق ، ص ١٢ — ١٦ ، من مقال لمحب الدين الخطيب .

(٥) المصدر السابق ، ١٥

ويخبرنا شكيب فيما يتحدث به عن نسب أسرته أنه من (الأشراف) وأنه من آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، فينقل عن إثبات من إثباتات الأنساب أن سلسلة نسبه « تنتهي إلى الملك المنذر بن الملك النعمان بن الملك المنذر بن الملك المنذر بن ماء السماء اللخمي » ويقول عقب ذلك : « وقد تناسلوا من الفاطميات ، وتشرفوا بذلك عن الأمهات من ذرية سيد الكائنات » . ثم يقول : « وعلى هذا الإثبات شهود عدة[1] » .

وكان شكيب يفخر بهذا النسب — وإن حاول ستر هذا الفخر أحيانا — فهو مثلا يقول :

« والمعتمد بن عباد ينتمي إلى المنذر بن ماء السماء اللخمي ، وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

من بني منذر ، وذاك انتساب زاد في فخرهم بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالي والمعالي قليلة الأولاد »

ثم يعلق على ذلك بقوله : « وإلى هذه الشجرة أيضا ينتسب محرر هذا الكتاب ، ومن بني لخم أقوام كثيرون في الغرب والشرق ، ولا سيما بصعيد مصر[2] » .

وفي موطن ثان يقول : « ونحن قوم لا ندعي بما ليس فينا ، ولا نتزيد بأكثر مما عندنا[3] » .

وهو يعنى بالحديث الطويل المسهب عن ترجمة أسرته وبيان نسبها وذكر تاريخها ومفاخرها ، ويستشهد لذلك بالكثير من الإثباتات والسجلات والشهادات والمراجع ، ثم يحاول تسويغ فخره وتعليل عنايته بنسب أسرته ، فيقول إنه لم يقصد افتخارا ولا ابتهارا ، ولكنها شنشنة العرب المركوزة في فطرتهم ، لا يبغون عنها حولا ، وهي المحافظة على أنسابهم ، والبحث عن أصولهم .

---

(١) المصدر السابق . هامش ص ١٤٧ .
(٢) رواية آخر بني سراج ، ص ١٤٧ .
(٣) روض الشقيق ص ٨ .

والتنقيب عن ماضيهم ، ولم ينفرد بذلك العرب ، بل هو عند غيرهم من الأمم وإن كانوا هم فيه أبعد مدى وأزهر منتدى[1].

ويظهر أن شكيب كان يلح هذا الإلحاح فى حديثه عن تنوختيه ومنذريته ولخميته ونسبته إلى آل البيت ، ليؤكد أنه عربى من صميم العرب ، وأنه من سلالة أجداد عرب يضربون فى أعماق العروبة إلى مدى بعيد ، ولينفى عن نفسه وأسرته ما قد يلقيه لقب « أرسلان » من ظل التركية عليه ، لأنه لقب مشهور لدى الأتراك ؛ والسجل الذى اعتمد عليه شكيب فى سلسلة نسبه ومفاخر أسرته بحاجة إلى بحث يحدد قيمته ، وليس هذا البحث مما يتسع له نطاق دراستنا هنا .

طائفة الدروز :

وشكيب من طائفة « الدروز » بلبنان ، فمن أولئك الدروز ؟ .

يقول الإمام الشيخ محمد عبده فى اللائحة التى وضعها لإصلاح سورية ، وقدمها إلى والى بيروت حوالى سنة ١٣٠٤ هـ :

« أما سكان جبل لبنان فهم طوائف مختلفة أكثرها عددا وأقواها عدة طائفة الموارنة من النصارى ، ويليها طائفة الدروز ، وبوجد نزر يسير من أهل السنة ، وعدد قليل من الشيعة ، وعائلات من سائر الطوائف المسيحية » .

ثم يقول : « والدروز كانوا قبل سنة ١٨٦٠ من أقوى أنصار الدولة (العثمانية) وأشد الطوائف تعلقا بها ، ولهم صفات فى الشجاعة والنبات تخولهم مقاما يزيد فى الرفعة على مقام الموارنة فى الجبل ، ولكن بدأ فيهم الضعف بعد امتياز لبنان ، عندما صار النظام قاضيا بأن متصرفه يكون كاثوليكيا ، وأغلب رجال حكومته من المسيحيين ، وأصبحت قوى الباس لا توصلهم إلى المناصب

(١) روض الشقيق ، ص ١١

كما كانت فى سابق العهد ، واضطروا لموالاة أهل السلطة ليحفظوا بعض ما بقى لهم ، أو ينالوا شيئا مما يخول النظام نيله ، فانحطت بذلك أحوالهم .

وقد كانوا ولا يزالون فئتين : جنبلاطية ويزبكية ، فالجنبلاطيون استمالتهم حكومة انكلترا ، وأخص علائقهم مع قنصل الإنجليز ، واليزبكيون وهم أقرب الفئتين إلى الدولة مالوا إلى المشرب الفرنساوى ، وكرعوا منه حتى عموا ، غير أن الحكومة الإنكليزية لم تأل جهدا فى استمالتهم أيضا[1] .

وهناك من يقول إن الدروز أصلهم فارسى[2] ولهم تعاليم ومبادىء أصلها من الفارسية ، ومن يقول إن أصلهم من الصليبيين[3] ، وهناك من يقول إنهم من أتباع أبى محمد الدرزى الذى كان والى الحاكم بأمر الله[4] ، وذكر بعض الباحثين أن هذه الطائفة لها عقائد سرية ، وآراء تخالف تعاليم الإسلام[5] ، ولكن شكيب يقول إنها من الفرق الإسلامية ، ويقيمون شعائر المسلمين ، ويصعب إخراجهم من الإسلام ، ولما الظاهر والله يتولى السرائر[6] .

ويقول شكيب فى تسمية الدروز ، وإنما سموا الدروز نسبة إلى نشتكين الدرزى العجمى ، أحد دعاة الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى ، وهم يكرهون هذا الاسم ، لكنه غلب عليهم بالرغم منهم ، والحق أن نحلتهم إسماعيلية فاطمية[7]

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ، ج ٢ ص ٥٢٤ و ٥٢٥ .

(٢) الدكتور فيليب حتى ، مجلة الهلال ، عدد مارس ١٩٣٠ — ص ٦٢٦ .

(٣) مجلة المجتمع العلمى العربى ، مجلد ١١ ص ٤٥٥ من مقال لشكيب بعنوان (النقد التاريخى) وشكيب يعارض هذا الرأى بشدة .

(٤) صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٤٨ — طبعة المطبعة الأميرية ١٩١٨ م

(٥) دائرة معارف القرن العشرين لوجدى ، المجلد الرابع ، ص٢٦ وما بعدها . مطبعة دائرة المعارف ١٩٢٤ .

(٦) جريدة الشورى ، ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٥ .

(٧) كتاب عروة الاتحاد ص ٢٨ من مقال طويل عنوانه : « آل معروف فى الدروة من العروبة ، ولا يمكن أن يكونوا عضدا للافرنج على العرب » .

وكما تتعدد الأقوال والآراء فى الحكم على عقيدة الدروز وأصلهم ، تتعدد أيضا فى وصفهم فشوقى يقول فيهم :

وما كان الدروز قبيلَ شرٍّ ... وإن أُخـذوا بما لم يستحقوا
ولكن ذادة ، وقراة ضيف ... كينبوع الصفا خشنوا ورقوا
لهم جبـل أشم له شعاف ... موارد فى السحاب الجون بلق[1]
لكل لبوءة ولكل شبل ... نضالٌ دون غايتـه ورشق
كأن من السموءل فيـه شيئاً ... فكل جهاته شرف وخلق !

ويعلق شكيب على ذلك بقوله : « قال شوقى هذه الأبيات ، وأحسن ما فيها أنه قال قولا لم ينكره أحد عليه ، لأن الإجماع واقع على اتصاف بنى معروف[2] بهذه الخلال التى عرفها شوقى فيهم ، إما من التاريخ ، وإما فى أثناء قدماته إلى الشام ، وإما من الاثنين معا[3] » .

أما الشيخ محمد عبده فيقول فى تقريره : « والدروز قوم خلو من العلوم بالمرة ، سذج كأنهم فى بدايات البداوة ، ولكنهم أذكياء بجودة الفطرة ، ولا يخشى على كبارهم أن يخلعوا مذهبهم إلى مذهب آخر ، وإنما يخاف على أبنائهم من ذلك ، وعلى كبارهم من الانقياد السياسى إلى دولة الانكليز[4] » .

وأما القلقشندى فقد قال عن القدماء منهم إنهم أشد كفرا ونفاقا من « النصيرية » وإنهم « أبعد من كل خير ، وأقرب إلى كل شر[5] » .

ولكن الأمير شكيب كان سنيا ، وإن انتسب سياسيا أو إداريا إلى الدروز ، وكان يتعبد على طريقة السنيين ، فهو يصلى ويصوم ويحج كما يفعل

---

(١) الشعاف : أعالى الجبل ، والجون : الأسود أو الأبيض (ضد) والبلق : البيض .
(٢) سأل سائل عن سبب تسمية الدروز بنى معروف ، فأجابت مجلة الهلال قائلة : « عرفنا بهذا اللقب منذ القديم لمحض اشتهارهم بإسداء المعروف أى الجميل » مجلة الهلال — أكتوبر ١٩١٥ — ص ٦٥ .
(٣) كتاب « شوقى » ص ٢٥٨
(٤) تاريخ الأستاذ الأمام ، ج ٢ ص ٥٢٥
(٥) صبح الأعشى ، ج ١٣ ص ٢٤٨ .

جمهور المسلمين ، وقد أكدت لى زوجته هذه الحقيقة وقالت : إن الدروز يحرمون الزواج من سنية ، ولكن زوجى تزوجنى وأنا سنية مسلمة . وقد تسبب هذا الوضع فى متاعب لشكيب ، فمن الدروز من لا يرونه درزيا كاملا ، ومن السنيين من لا يرونه سنيا كاملا ، فضاع جانب من حقه بين هؤلاء وهؤلاء .

* * *

أبواه :

وُلدَ شكيب فى بيت أسرته العتيق الموجود فى حارة الأمراء ، وهى محلة آل أرسلان بالشويفات ، وكانت ولادته يوم الاثنين ، أول ليلة من رمضان سنة ست وعمانين ومائتين بعد الألف (١٢٨٦ هـ) الموافق للخامس والعشرين من ديسمبر سنة تسع وستين وثمانمائة بعد الألف (١٨٦٩ م)[١] .

ويقول الأمير شكيب فى ذلك — وهو يداعب الأستاذ إسعاف النشاشيبى — « وفى الحقيقة أنى مولود سنة ١٢٨٦ فى أول ليلة من رمضان ، وهذا مقيد بخط والدى ، إن شئت نطبعه لك بالزنكوغرافيا ، أو نصوره بالفتوغرافيا[٢] » .

وسماه أهله باسم « شكيب » ، ومعنى الاسم بالفارسية « الصابر » ، إذ يقول شيخ العروبة أحمد زكى باشا : « إن إخواننا الفرس يعبرون فى لسانهم عن الصابر بأنه : شكيب[٣] » .

وقد ولد شكيب لأب له مكانته ومنزلته ، فهو الأمير « حمود » المتوفى سنة خمس وثلاثمائة بعد الألف عن ثمان وخمسين سنة ، فى الشويفات ، ودُفن فيها بالقبة المعروفة ، وكان عاقلا كريما جسورا ، ذا همة ومروءة ومعرفة ، وتعين ثلاث مرات مديرا لناحية الغرب الأسفل ، وقرأ العربية على المرحوم

---

(١) ذكرى الأمير شكيب ، ص ١٢ .

(٢) جريدة الشورى ، ٢٥ من يونيه ١٩٣٠ .

(٣) المرجع السابق — ١٠ من مايو ١٩٢٨ ، وفى القاموس : الشكب : بالضم العطاء والجزاء .

الشيخ الإمام محي الدين بن عمر اليافي ، وتعلم التركية ، وكان يحسن الإنشاء ، ويقرض الشعر[1] » . ويقول عنه شكيب : « وكان والدي رحمه الله يحب لغة قومه ، وله مشاركة في النحو والصرف والأدب ، وله نظم لا بأس به[2] » .

ولما مات « حمود » سنة ١٨٨٧ م رثاه الشيخ سعيد الشرتوني بقصيدة مطلعها :

عصفت ببيت المجد نكباء الردى فلها بياض « الغرب » أصبح أسودا[3]

* * *

وأما والدة شكيب فسيدة شركسية جليلة عاشت أكثر من مئة سنة ، وكان لها تأثير بليغ في نفس شكيب : وكان يحبها حباً جماً ، ويترجم عن هذا الحب في كثير من المناسبات ، ويعبر عنها غالبا بقوله « سيدتي الوالدة » . وهو يحدثنا أنه بعد هجرته إلى أوربا في سبيل قضية العروبة والإسلام حاول أن يقابل والدته في فلسطين . ولكن الإنجليز حالوا دون ذلك[4] . وأراد أن يحمل أمه على الهجرة معه إلى جنيف فأبت ، لأنها لا تريد أن تسكن إلا في بلاد إسلامية ، وقد أشار شكيب إلى ذلك في رسالة منه للسيد رشيد رضا بتاريخ ٨ من أيلول ١٩٢٣ .

وحينما سافر شكيب إلى الحج سنة ١٣٤٧ هـ = ١٩٢٨ م عمل ترتيباته لكي تحضر أمه مع ولدي عمه أمين مصطفى أرسلان وشقيقه إلى السويس لكي يراها وهو في طريقه إلى الحج ، وقد كان .

وحينما عاد من غربته الى بيروت في يونيه ١٩٣٧ استقبله عدد كبير من أبناء الشام وسار وراءه في موكب مزدحم ، وكانت والدته قد جاءت في ذلك اليوم لترى ابنها ، ونزلت بدار الأمير أمين « فلما مر الموكب من هناك توقف الموكب عن المسير ، ونزل الأمير فدخل الدار . وقبل يدي والدته ، فلثمته ودعت له ، ثم عاد إلى موكبه الذي واصل سيره[5] » .

---

(١) روض الشقيق ، ص ١٤٥

(٢) المرجع السابق ص ١٨

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧٠ ، والغرب هو المقاطعة الأرسلانية في لبنان .

(٤) مجلة الفتح ، ٦ من فبراير ١٩٣٠

(٥) مجلة الشباب — ٢٣ من يونيه ١٩٣٧

وبسبب حنينه إلى أمه وحبه لها وتقديره لمكانها سكن فى أول هجرته بلدة « مرسين » بتركيا ، على القرب من الحدود السورية ، ليكون قريبا من أمه ، فيهون عليها السفر إليه ، فيتمكن من مشاهدتها ، يقول : « وهكذا كان . فقد أقمت بمرسين سنة ونصف سنة ، ولا سبب لاختيارى السكنى فى تلك البلدة إلا هذا السبب »[1].

هذه شواهد ناطقة على منزلة هذه الأم ومكانتها وأثرها فى نفس شكيب ولعل مردّ هذا — فوق ما للأمومة من مكانة — أن والدة شكيب كانت سيدة جليلة فاضلة .

* * *

نشأته الدراسية :

وبلغ شكيب الخامسة وبجواره أخوه « نسيب » المولود قبل شكيب بسنة ونصف السنة ، فهما لقرب السن من السن كأنهما توأمان [2] ، وهنا ندب لهما والدهما رجلا يعلمهما القراءة والكتابة فى الشويفات ، هو الشيخ مرعى شاهين سلمان — الذى صار فيما بعد شيخاً لقصبة الشويفات — فكان أول من تعلما عليه « ألف باء » ، ولما صعدت الأسرة للاصطياف فى « عين عنوب » ندب لهما والدهما معلما ثانياً هو أسعد أفندى فيصل الذى أقرأهما القرآن الكريم ، حتى حفظا جانبا منه .

ورجعت الأسرة إلى « الشويفات » ، فدخل شكيب مع أخيه مدرسة الأمريكان فى حارة العمروسية بالشويفات ، حيث قضى مدة درس فيها مبادئ الجغرافية والحساب والإنجليزية .

وفى سنة ١٢٩٦ هـ — ١٨٧٩ م — أى وهو فى العاشرة من عمره تقريباً —

(١) روض الشقيق ، ص ٢٦ ويقول شكيب بعد ذلك : « ورجعت إلى سويسرا بعد أن رويت غليلى من مشاهدة السيدة الوالدة ، إذ كنت أخشى أن يوافى أجلها الأجل قبل لقاء الآخر »

(٢) روض الشقيق ، ص ١٧

دخل مدرسة الحكمة فى بيروت ، لمؤسسها المطران يوسف الدبس رئيس أساقفة الطائفة المارونية ، وكانت مدرسة مشهورة بإتقان اللغة العربية ، فظل بها إلى سنة ١٣٠٤ هـ — ١٨٨٦ م حيث تلقى خلال هذه السنوات الثمانى دروس العربية على الشيخ عبد الله البستانى ، والفرنسية على المعلم شاكر عون ، والتركية على عبد السلام بك التركى (١) .

وقد تأثر شكيب فى هذه الفترة بالبستانى أكثر من غيره ، وظهر للشيخ نبوغ تلميذه ومواهبه ، فذكر أنه أحسن تلاميذه وأقربهم إليه ، ولا عجب ، فقد أخذ شكيب ينظم الشعر ، ويكتب المقالات ، ويبدى أفكاراً عربية وإسلامية قويمة . ومن شعره وهو فى الرابعة عشرة أنه كتب تحت أول صورة أخذت له هذين البيتين :

ونفسك فابدأ بتصويرها بما أنت من خالد فاعل
وإلا مضى الجسم مع رسمه . ولا يخلد الزائل الزائل (٢)

كما أنه يذكر أن على بك ناصر الدين أنشأ مجلة اسمها « الصفاء » صارت فيما بعد جريدة سياسية ، وخدمت العلم والأدب ، وكان لشكيب فيها أول مقالة صدرت من قلمه ، وذلك فى سنة ١٨٨٥ م (٣) .

وحينما زار الشيخ محمد عبده مدرسة الحكمة ، وقدموا إليه التلميذ شكيب قال له الشيخ : « إنى أعرف اسمك ، وستكون من أعظم الشعراء (٤) » . وكان لهذا القول فى نفسه أثر كبير ، كما كان لصلة شكيب بالشيخ منذ ذلك العهد خير وثمر . وشكيب يذكر لنا لمحات عن توثق علاقته بالشيخ ، فيقول إن الشيخ نفى بعد ثورة عرابى إلى بيروت سنة ١٨٨٣ مع جماعة ، وكان شكيب يحصل العلم حينئذ فى مدرسة الحكمة ، وفى سنة ١٨٨٥ قرأ خبرا عن مجلة « العروة الوثقى » ، وكان مع زملائه فى المدرسة مغرمين بأخبار الكتاب والشعراء ، فكنا نرى الدنيا

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٨
(٢) الباكورة ، ص ٩٣ ، والديوان ص ٢٠١
(٣) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ١٢
(٤) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ١٥ — سنة ١٩٣٧ — ص ٤٢٣

كلها نظما و نثرا ، وكان كل ماخرج عن الإنشاء والشعر والأدب لا نكاد نقيم له وزنا » .

وزار الشيخ سعيد الشرتونى صاحب « أقرب الموارد » مدرسة الحكمة ، فسأله شكيب عن الشيخ محمد عبده فقال له : هذا الرجل إذا تكلم يخرج النور من فيه . فازداد شوق شكيب إلى الإمام ، وفى أواخر سنة ١٨٨٦ رأى شكيب الإمام لأول مرة فى احتفال بمدرسة الحكمة ، ثم تكرر اللقاء بعد أن قدمه الشيخ عبد القادر القبانى إلى الإمام ، وظهر أن الإمام يعرف اسم شكيب من قصائده التى ينشرها ، ويقرر شكيب أن الإمام قال له كما سبق : « أنت ستكون من أحسن الشعراء » .

وصار شكيب يزور الشيخ ، ويتردد عليه للسمر والسماع ، وتعرف الإمام بوالد شكيب ، وزاره فى منزله بالجبل ، وقدره كثيرا ، وقال عنه : إنه أعقل من رأيت من أمراء الجبل[1] .

وستزداد صلة شكيب بالإمام على مر الأيام كما سنرى .

وكان شكيب مبرزا مع أخيه على أقرانهما ، فكانا يتبادلان مقامى الأول والثانى بين التلاميذ[2] .

وفى سنة ١٣٠٤ هـ = ١٨٨٦ م دخل شكيب مع أخيه المدرسة السلطانية ، حيث أقاما بها سنة يتعلمان التركية والفقه . يقول شكيب عن أيامه فى هذه المدرسة : « وحضرنا مجلة الأحكام العدلية على المرحوم الشيخ محمد عبده ، وكنا نلازم المرحوم فى مجالسه الخاصة . ولا سيما أنه كانت انعقدت بينه وبين المرحوم والدى صداقة أكيدة ، فكنا نزوره فى منزله ببيروت ، وكان يزورنا فى بيتنا بالجبل[3] » .

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ص ٣٩٩ و ٤٠٠ ، من مقال لشكيب عن الامام .
(٢) روض الشقيق ص ١٩
(٣) المرجع السابق ص ١٩ و ٢٠

وفى موطن آخر يذكر لما شكيب أنه تلقى فى المدرسة على يدى الشيخ التوحيد والفقه ، وأنه أكثر من التردد عليه ، حتى يقول شكيب : « ونظرا لكثرة ترددى عليه أقول إنى أعلم من هذا الأمر ما لا يعلمه غيرى ، فطالما لقيت بمجلس الأستاذ أصناف الملل والنحل ، وهى تفهم منه ، وهو يفهم منها[1] » .

وفى سنة ١٨٨٩ م ذهب شكيب إلى دمشق ، وكان فى التاسعة عشرة من عمره ، فحضر مجلس مفتى الشام العلامة الشيخ محمد المنينى . وجرى ذكر الشيخ محمد عبده فى المجلس فأثنى عليه مفتى الشام كثيرا[2] .

وفى سنة ١٨٩٠ كانت أول قدمة له إلى مصر ، فمكث شيع[3] شهر فى الإسكندرية ، ثم قدم القاهرة فكان أكثر اجتماعه — كما أخبر عن نفسه — بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وبرهطه المعهودين : سعد زغلول ، وأخيه فتحى ، والشيوخ : على اللبثى ، وعبد الكريم سلمان ، وعلى يوسف صاحب (المؤيد) ، وإبراهيم اللقانى ، وحفنى ناصف ، والسيد أحمد محمود ، والسيد إبراهيم الوكيل ، « وأحمد زكى باشا الذى هو خاتمة من أتذكره من رجال تلك الحلقة رحمهم الله أجمع ، وكانت اجتماعاتنا متواصلة ، وأسمارنا متطاولة ، ومذاكراتنا للقاصى والدانى شاملة[4] » .

ويحدثنا شكيب بأنه ذهب فى ذلك الوقت إلى زيارة الشيخ على يوسف فى مطبعة جريدته المؤيد فرآه جالساً يعالج تحرير مقالته فى دخول العام الهجرى الجديد حينئذ ، وهو لا يعرف كيف يصوغها ، وصار فى تعب زائد مع مقالته ، وهو يكتب ويشطب ، ويمحو ويثبت . فقال شكيب : لو قلت كذا وكذا . فأجابه الشيخ : « بالله عليك تكتب أنت هذه الافتتاحية » ، وفعل شكيب ، ونشرت المقالة[5] .

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ص ٤٠١ و ٤٠٢

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٠٤

(٣) الشيع : المقدار (القاموس) وقد استعمل شكيب الكلمة فاستعملناها متابعة له

(٤) كتاب « شوقى » ، ص ٤

(٥) النهضة العربية ، ص ١٧ و ١٨

وفى هذه الزيارة بدأ اتصاله بجريدة « الأهرام » ، فأخذ يراسلها ويكتب فيها باسمه أو بتوقيع رمزى ، كما بدأت صلته بجريدة « المؤيد »[1].

وفى أواخر سنة ١٨٩٠ سافر إلى الآستانة ، وهناك تعرف بالسيد جمال الدين الأفغانى وأعجب به ، وتلقى عنه ، واستقى من مناهله . وعرف منه الكثير من أمراض العالم الإسلامى ، كما أحس عن طريقه بالمهمة التى يجب أن ينهض بها فى هذا العالم .

وفى سنة ١٨٩٢ ذهب إلى فرنسا من الآستانة ، سائحاً ومستشفيا من مرض طرأ عليه ، وهناك تعرف بالشاعر أحمد شوقى وأعجب به وسمع منه[2] ، « ورأى الغرب بعينى محمد عبده وجمال الدين ، ونظر إليه نظرة خاصة ، فتفتحت أمامه كذلك آفاق جديدة غريبة . وعاد بعدها إلى بيروت ، وتعرف إلى السيد رشيد رضا ، واتصل به فازداد وثوقا فى ثقافته وغاياته ، وظلت هذه الصلة منبعاً لكثير من آرائه حتى قضى الشيخ رشيد رضا »[3].

* * *

رجال موجهون :

وهنا نقف وقفة لنتعرف إلى الذين أثروا فى شكيب فكرياً وأدبياً ، ثم لنتعرف إلى العوامل التى كونت شخصيته ، فإن شكيب الآن قد جاوز الثلاثين من عمره ، فا كتمل شبابه ، واستوى عوده ، وبرزت شخصيته .

لا نستطيع أن نلحظ تأثيراً كبيراً فى شكيب لمعلمه القراءة والكتابة الشيخ مرعى شاهين سلمان ، ولا لمقرئه القرآن أسعد أفندى فيصل ، فقد كان شكيب حينئذ على أبواب التكون الحسى والفكرى .

ولكنا نلحظ الشيخ عبد الله البستانى أستاذ شكيب فى مدرسة الحكمة ،

---

(١) كتاب « شوقى » ، ص ٧ . وذكرى الأمير شكيب ، ص ١٠ .
(٢) كتاب « شوقى » ، ص ١٠
(٣) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ١٣

فهو الذى فتق لسان الفتى بالعربية ، وحببها إليه ، وحرضه على تعلمها والشغف بها والعكوف على معجماتها ، حتى يذكر الشيخ رشيد رضا أن شكيب كان فى المرحلة الأولى من طلبه العلم يستعين بكتاب « لسان العرب » ويراجعه حين الاشتباه [1] .

ولقد كان البستانى شديد الإعجاب بشكيب كثير الثناء عليه ، حتى روى الشيخ خليل تقى الدين أنه سأل البستانى قبل وفاته بيومين : أى تلاميذك أحب إليك ؟ فأجابه : أحب تلاميذى إلىّ الأمير شكيب أرسلان [2] .

وهناك الشيخ محمد عبده الذى نفث فى صدر شكيب روحَ البحث فى تعاليم الإسلام ، مع العناية بلغة القرآن الكريم ، مع الاطلاع على مختلف الملل والنحل ، وهناك السيد جمال الدين الأفغانى الذى بثّ فى قلب شكيب حافزَ العناية بشئون العالم الإسلامى ، والبحث فى آلام الأمة الإسلامية وآمالها .

وهناك السيد رشيد رضا الذى أثر فى شكيب وتأثر بشكيب أيضاً ، وكان تأثير السيد رشيد يدور حول قضيتين كبيرتين تلاقتا فى أذهان طائفة من الكتاب والمصلحين — ومنهم رشيد وشكيب — وهما القضية العربية والقضية الإسلامية ، وكان أول لقاء لشكيب مع رشيد سنة ١٨٩٥ .

وهناك الشاعر أحمد شوقى الذى أعجب به شكيب وتسامر معه ، وسمع منه وأسمعه ، وباحثه وعارضه ، وكان شوقى أيضاً رجلا يقول فى العروبة كما يكثر القول فى الإسلام .

وهناك رجال أثروا فى شكيب وهم فى عالم البقاء ، بما خلفوا من آثار طالعها شكيب وأدمن النظر فيها وتأثر بها ، ومنهم ابن المقفع ، وأبو إسحاق الصابى ، وابن خلدون ، والمقرى صاحب « نفح الطيب » ، وقد يكون للحديث عن تأثر شكيب بهؤلاء مقام آخر .

* * *

وأما العوامل التى كونت شخصية شكيب فيرى الأستاذ روفائيل بطى —

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ص ٦٠٤

(٢) مناهل الأدب العربى — رقم ٢٨ عن شكيب أرسلان .

أنها تتركز فى ثلاثة عوامل :

١ — أرومة شكيب الكريمة ذات الحسب الباذخ .

٢ — السجايا العربية القوية فى تنوخيتها ومنذريتها ، بحيث فقت فى العشيرة ، وغنمت مفاخر بنى معروف منذ حلت لبنان .

٣ — توثب قومه وتحفز ملته ، فعرّفه لبنانى نابض بالحيوية المتقدمة ، وملته دعت إلى العمل خلال هذه الأعمال الطويلة فى خدمة العرب والمسلمين[١].

* * *

رحلات :

وفى سنة ١٩٠٠ أقيم معرض باريس ، وحاول شكيب أن يسافر إليه فلم يستطع ، لأن الاستبداد الحميدى فى ذلك الوقت جعل السياحة إلى الخارج بإذن ، وكان هذا الإذن متعذراً بالنسبة إلى شكيب[٢] .

وفى سنة ١٩٠٨ عين فى وظيفة « قائمقام » لقضاء الشوف ، وظل فى هذه الوظيفة مدة يصرّف شئونها بحزم وعزم ، وعدالة وكرامة ، فلم يقل لنفسه أن يكون ظلا للحكام العثمانيين ، ولا أن ينفذ الجائر من أحكامهم وأوامرهم ، ولا ان يميز بين أتباع عقيدة وأتباع عقيدة أخرى من بنى قومه ، ولذلك اختلف مع السياسة العثمانية المحلية ، وأدى به ذلك إلى الاستقالة من منصبه .

وفى سنة ١٩١١ قامت الحرب الطرابلسية بين طرابلس الغرب (ليبيا) وإيطاليا ، فسارع شكيب إلى الاشتراك فيها مع المجاهدين من العرب والمسلمين، ورافق شكيب فى هذه الحرب القواد الأتراك ومنهم أنور باشا ، وكان شكيب مخلصاً للدولة العثمانية ، يراها دولة الخلافة الإسلامية ، فالتعاون معها تعاون على خدمة الإسلام والمسلمين ، فجعل يثير العزائم ويستنهض الهمم[٣] .

وقد عهدت إليه آن ذاك جمعية الهلال الأحمر المصرى بقيادة ستمائة جمل

---

(١) مجلة الكتاب (مصر) عدد فبراير ١٩٤٧ .

(٢) كتاب « شوقى » ص ١٤٥

(٣) محاضرات عن الأمير شكيب ص ١٤ .

تحمل أرزاقاً للمجاهدين فى برقة ، فقام بالمهمة خير قيام ، وظل فى موطن الجهاد ثمانية أشهر تقريباً[1] .

وانتخب شكيب نائباً عن « حوران »[2] فى البرلمان العثمانى بالآستانة « مجلس المبعوثان » الذى بدأ سنة ١٩٠٩

وفى سنة ١٩١٢ سافر شكيب من برقة إلى الآستانة ، إذ عينوه مفتشاً لبعثات « الهلال الأحمر المصرى » ، فنهض بواجبه نهوضاً إسلامياً متحمساً . ثم سافر سنة ١٩١٤ إلى « المدينة المنورة » لإنشاء مدرسة فيها .

وهكذا نجد أن السياسة أخذت تستبد بوقت شكيب ونشاطه حتى زاحمت الأدبَ والبحث ، وحتى قال أحد الباحثين عن شكيب فى ذلك الوقت : « مال جولة رفعته إلى رتبة المشاهير ، ثم شغلته السياسة عن متابعة التحبير »[3] .

نعم شغلته السياسة إلى حد كبير ، فهو يشغل مناصبَ لها صلتها بالسياسة ، ويرحل رحلات فى سبيل قضايا قومه ودينه ، ويتصل بكبار المسئولين السياسيين فى لبنان وفى الآستانة ، وهو يتدخل فى السياسة اللبنانية والسياسة العثمانية ، فيجنى ثمراً من هذا التدخل حينا ، ويكتسب منه جمراً حينا آخر ، ويصيبه ما يصيبه من سوء الظن به أحياناً ، ومن التقدير لجهوده أحياناً أخرى ، وذلك لتعدد الأهواء والمشارب ، ولصعوبة التوفق بين أمر الحاكم ورغبة المحكوم ، ولسريان التفرق والتزق فى كيان المجتمعين العربى والإسلامى اللذين تعلق شكيب بخدمتهما والعمل من أجلهما .

ولكن الطابع البارز عليه حتى الآن هو تأييده للسياسة العثمانية[4]، وجهاده فى سبيل الخلافة ، ودفاعه عن الإسلام والمسلمين ، وسيظل حبه لدولة الخلافة

---

(١) مجلة الكتاب ، عدد فبراير ١٩٤٧ .

(٢) حوران سهل من سهول الشام عاصمته درعا (أذرعات) .

(٣) مجلة سركيس — السنة الخامسة — الجزء ١٥ — ص ٤٣٤ — مايو ١٩١٠ — مقال (حمة الأقلام) لحليم إبراهيم دموس .

(٤) فى سنة ١٩١٢ كانت جريدة (المؤيد) تنشر مقالات شكيب ، وتكتب تحت عناوينها هذه العبارة : « لسعادة الكاتب العثمانى الكبير » انظر رسائل الرافعى ، ص ٤

ردحاً طويلا من الزمان ، حتى يتوسع فى مدح دولة الخلافة بمثل قوله فى ديوانه :

أحبكم حبُّ من يدرى مواقفكم ... فى خدمة الدين والإسلام من حقب
أحبكم حبَّ من يسعى لطيته ... فى طاعة العقل ، لا فى طاعة الغضب
مهما يكن من هنات بيننا ، فلنا ... معكم على الدهر عهد غير منقضب
كفى « الشهادة » فيما بيننا نسبا ... إن لم تكن جمعتنا وحدة النسب
مجدى بعثمان حامى ملتى ، وأنا ... لم أنس قحطان فى الورى وأبى !

***

ولكن شكيب كان — قبل أن تشغله السياسة — قد وثق علاقته بكثير من الشعراء والأدباء ، وتأثر أدبيا بهذه العلاقة ، وشعره يدل على ذلك ، فهو حين يطبع ديوانه الأول « الباكورة » سنة ١٨٨٧ — وهو ابن سبع عشرة سنة يهدى نسخة منه إلى الشاعر المصرى عبد الله باشا فكرى ، ويجعل عبارة الإهداء شعراً ، ويطالع فكرى الديوانَ ، ويبعث إلى شكيب بقصيدة يقول منها عن شكيب :

تعلق قلبه من عهد مهد ... بكسب المجد مجتنباً لخسر
وأولع بالمعالى والمعانى ... ونظم الشعر لا لطلاّب وَفر[1]

وفى سنة ١٨٩٥ تقريباً يبعث شكيب بقصيدة إلى الشاعر إسماعيل صبرى باشا — وكان حينئذ محافظاً للإسكندرية — وفيها يقول فى مدح صبرى :

ورعى بارضك سيداً أخت به ... الإسكندرية ثغرك الضحاكا
شهم لعمرى ما أنضت بلاغة ... عنه قصرت عن المدى إدراكا[2]

وحينما كان شكيب حول العشرين من عمره أخذ يعقد علاقات بينه وبين كبار الشعراء والأدباء ، فهو يتلمس الاتصال بالبارودى فيستشهد فى كتاباته أكثر من مرة بشعر للبارودى على غير معرفة سابقة ، والبارودى فى منفاه

(١) ديوان الأمير ص ١٩
(٢) المرجع السابق ، ص ٢١

بسيلان ، ومثل هذا الاستشهاد يرضيه ويعجبه فى غربته . وما كاد يبعث إلى شكيب بمقطوعة شعرية يشكر له فيها التنويه باسمه حتى أجابه شكيب بقصيدة يمدحه فيها ، ويرتجى بها توثيق العلاقة بينهما .

وفى سنة ١٩٠٢ يرسل شكيب إلى البارودى قصيدة من طبرية ، وفى السنة ذاتها يعزيه فى ابنته بقصيدة فيرد عليه البارودى بقصيدة يقول فيها عن شكيب :

ألمعى له بداهـــة رأى تدرك الغيبَ من وراء اللثام
وقريض كما وشتْ نسمات بضمـير الأزهار إثر الغمام
هـزنى شـعرُه فأيقظ منى فكرةً كان حظها فى المنـام[1]

ولا شك أن مثل هذه المراسلات الشعرية كان لها أثرها فى نفس شكيب وفى تفجير ينبوع الطموح الأدبى فى صدره .

وشكيب يمدح جمعا من الشعراء والأدباء ، أمثال أحمد شوقى وحافظ إبراهيم وخليل مطران ، وعبد الحميد الرافعى ، وعبد الله البستانى ، وقصائده فى هؤلاء تدل على علاقته بهم . وكذلك رثى شكيب جمعا من رجال العلم والأدب مثل أحمد فارس الشدياق ، وإبراهيم اليازجى ، وعبد العزيز جاويش ، وأحمد تيمور وعبد السلام بنونه ، وغيرهم ، وهذا يدل على ارتباطه بهم وتأثره بهم .

* * *

فى الحرب العالمية الأولى :

ثم قامت الحرب العالمية الأولى بين تركيا والحلفاء عام ١٩١٤ فأخذ شكيب يحرض على الوقوف فى صف العثمانيين ، والدفاع عن الخلافة ودولتها ، وعن الإسلام وجيشه ، وجعل يهاجم الحلفاء ، ويصفهم بأنهم أعداء العرب والمسلمين معاً ، وأنهم إذا كانوا يتظاهرون بتحرير البلاد العربية من الاستعمار ، فهم فى الحقيقة والواقع يريدون إضعاف الدولة العثمانية أولا ، حتى إذا قضوا عليها وعلى سلطانها ، وسلخوا البلاد العربية منها عادوا ليحتلوا هذه البلاد العربية ، ويقتسموها فيما بينهم .

(١) المرجع السابق ص ٥ — ١٧

ولقد شارك شكيب بنفسه فى بعض أعمال الحرب فى صف الدولة العثمانية فهو مثلا يقول: «ولقد أقمت بقصبة معان شيع شهر[1] فى أثناء الحرب العامة سنة ١٩١٥م إذ كنت ذاهبا ومعى ١٢٠ مجاهداً من جماعتى إلى حرب الترعة منضما إلى الجيش العثمانى الحجازى الذى كان يقوده وهيب باشا، وسرنا من (معان) هبوطا مستمرا إلى قعة الخل فى صحراء التيه، ولقد قطعت فى تلك الرحلة جانبا من جبال الشراة، وعرفت أى جبال هى[2]».

وأخذت هوة الخلاف تتسع بين العرب والعثمانيين، بسبب مظالم الحكم العثمانى من جهة، وتطلع العرب إلى الحرية والاستقلال من جهة ثانية، ومكر الحلفاء فى وعودهم الخلابة من جهة ثالثة، وأخذت مسافة البعد بين العرب والحلفاء تضيق بقدر ما تتسع مسافة الخلاف بين العرب وتركيا.

وأدرك شكيب أن الحلفاء يخادعون العرب، وكان ما زال يثق بالعثمانيين ويحرص على دولة الخلافة، ويطمع فى مجد الإسلام على يديها، ولذلك عارض الثوار من العرب، وأخذ يحذرهم العواقب، ولا عجب فهو الذى ألقى قبل الحرب العامة الأولى بسنة قصيدة فى الآستانة، وفى آخرها يحذر من استنامة أمته للأجنبى الدخيل، ومن أخطار الشقاق بين العرب والترك؛ فيقول فى ختامها:

فيا وطنى لا تترك الحزمَ لحظة ... بعصر أحيطت بازدحام مناهله
وكن يقظاً، لا تستنم لكيدة ... ولا لكلام يشبه الحقَّ باطله
وكيد على الأتراك قيل مصوَّب ... ولكن لصيد الأمتين حبائله
تذكر قديمَ الأمر تعلم حديثه ... فكل أخير قد نمته[3] أوائله
إذا غالت الجلى[4] أخاك فإنه ... لقد غالك الأمرُ الذى هو غائله
فليست بغير الاتحاد وسيلة ... لمن عاف أن تغشىَ عليه منازله
وليس لنا غير الهلال مظلة ... ينال لديها العز من هو آمله

---

(١) شيع (بفتح فسكون): مقدار.
(٢) ديوان الأمير شكيب، ص ١٢٩ وجريدة منبر الشرق عدد ٣٠ من يناير ١٩٥٣
(٣) نمته: عزته
(٤) الجلى: الأمر العظيم.

ولو لم يفدنا عبرة خطب غيرنا لهان ، ولكن عندنا من نسائله
سيعلم قومى أننى لا أغشهم ومهما استطال الليل فالصبح واصله

وقد نشر شكيب القصيدة كاملة فى ديوانه المطبوع سنة ١٩٣٥ م وعلق على البيت الأخير بقوله : « نعم وقد انتهى الليل وجاء الصبح ، وظهر أننا ما غششنا قومنا ، وإنما حذرناهم أن ينخدعوا[١] » .

ولعله كان قد علم بنوايا الحلفاء فى تقسيم البلاد العربية ، ولذلك يتحدث عن عدم اشتراكه فى الثورة العربية ، وأنه عرف أن البلاد العربية ستكون نهباً مقسماً عقب الحرب بين انكلترا وفرنسا ، ثم يقول :

« وهذه المسائل سبقت لى عنها كتابات مطبوعة قبل الحرب ، وفى أثناء الحرب ، وقد أعاد بعضهم نشرَ شىء منها منذ سنوات . وهو كتاب مفتوح كنت نشرته أيام الحرب موجها إلى أحد الأشراف قائلا فيه : « ماذا تصنعون ؟ أتقاتلون العربَ بالعرب ، وتسفكون دماء العرب بأيدى العرب ، لأجل أن تكون سورية لفرنسا . والعراق لانكلترا ، وفلسطين لليهود[٢] ؟ » .

والواقع أن شكيب على الرغم من وقوفه بجانب العثمانيين ، ومعارضته للثورة العربية فى تلك الفترة ، قد قام بجهود كثيرة لبلاده وأبناء وطنه ، وهذا هو الأستاذ روفائيل بطى يقول : « ولا نكران فى أن شكيب أرسلان تعاون مع قائد الجيش العثمانى الذى لُقِّب بالسفاح ، بعد اضطهاده لأحرار العرب . وكتب فى جريدة (الشرق) التى أسسها القائد للدفاع عن سياسته ، ولكن المنصفين من رجال العرب أكدوا مراراً باللسان والقلم — بعد أن انقشعت غياهبُ الحرب العظمى الأولى ، وبمناسبات كثيرة فى حياة الفقيد الجليل وبعد وفاته — بأنه كان واسطةَ خير لكثيرين ، ودريئة شر عن كثيرين فى تلك الأيام الحالكة[٣] » .

---

(١) الديوان ص ١١٢
(٢) جريدة الشورى — ١٠ من ابريل ١٩٢٩ .
(٣) مجلة الكتاب — فبراير ١٩٤٧ . ص ٥٦٩

ويذكر بطى أن الأمير سعى فى إنقاذ كثير من المنفيين إلى الأناضول من أعيان سورية والجبل ، وخفف من كارثة المجاعة فى لبنان ، وحمل الدولة على توزيع المال على فقراء اللبنانيين ، وكانت له يد طولى فى المحافظة على امتيازات لبنان التى استفاد منها الأهلون كثيراً فى تلك الأيام الحرجة ، وأقنع أنور باشا بالموافقة على دخول مراكب أمريكية تنقل خمسة عشر ألف طن دقيق إلى لبنان ، إلا أن الحلفاء رفضوا هذا ، خشيةَ ذهاب الدقيق إلى المانيا ، فبقيت المئونة فى الاسكندرية ، وكان ذلك فى أوائل سنة ١٩١٧[1] .

وجعل شكيب يبذل النصح للعثمانيين رجاء أن يرعووا أو يعتدلوا ، ويحاول أن يقرب مسافة الخلف بينهم وبين قومه ، ولكن الخرق كان قد اتسع على الراقع ، وأسرف الحكام العثمانيون فى سياستهم الخرقاء التى يقودها الاستبداد والغرور ، حتى جعلوا العربَ يزدادون إعراضاً عنهم ، وبغضا لهم ، وميلا إلى الحلفاء ، وتعاونا معهم .

هجرة طويلة :

وانتهت الحرب بهزيمة العثمانيين هزيمة كاسرة ، وأدركت العرب نشوة مؤقتة ، لاعتقادهم أن يوم الفوز فى قضيتهم على الأبواب ، وبدا لشكيب أن سياسته التى كان يتبعها قد باءت بالإخفاق ، وأنه لم يبق له مقام بين قومه الذين خالفهم فى الرأى ، وعارضهم فى الخطة ، وانتهى الجانب الذى يؤيده إلى الهزيمة ، فقرر الرحيل .

وغادر لبنان إلى تركيا ، وأقام فى بلدة « مرسين » القريبة من الحدود السورية ، وقد صرح شكيب أكثر من مرة بأنه أقام فى « مرسين » ليسهل عليه رؤية أمه التى يحبها ويجلها ويطغى عليه حنينه إليها ، ولكننا نستطيع أن نضيف إلى ذلك سبباً آخر وهو أن « مرسين » بلدة تركية . والنزعة العثمانية لم تغادر صدر شكيب بعد .

---

(١) المصدر السابق . وذكرى الأمير . ص ٣٧٩ .

وكثرت الآراء والأقوال فى بيان السبب الذى دعا الأمير إلى ترك وطنه ، فقائل يقول : إن الأمير لم يترك سورية باختياره ، بل إن السلطات الفرنسية التى احتلت البلاد هى التى نفته ، وقائل يقول : إن حكما صدر بالإعدام على شكيب فى فرنسا ، فخاف تنفيذَ الحكم ففرَّ ، ويعلق شكيب على هذه الأقوال بقوله :

« وكلامهم يناقض بعضه بعضاً ، فبينما نراهم يقولون إننا فررنا من سورية على أثر الحكم علينا بإعدام الحياة فى المحاكم الإفرنسية ، إذا بهم يعترفون بأننا لم نبرح سورية إلا من تلقاء أنفسنا ، وهذا هو الواقع ، فإننا أبينا أن نسكن سورية ما دام الحكم فيها للأجنبى »[1] .

ومهما يكن من أمر فلم يكن هناك مفرٌّ من خروج شكيب بعدما صارت الأمور إلى ما صارت إليه ، فسياسته لم تنجح ، والعثمانيون قد انكسروا ، والقوم من حوله يخالفونه فى الرأى ، وهم فى موقف النصر كما يعتقدون ، وعداوة شكيب لفرنسا واضحة ، وهى اليوم حاكمة البلد المسيطرة عليه ، ولو بقى شكيب لما أمن المتاعب والمخاطر ، ولما استطاع أن ينال حريته فى الحركة والكلام والكتابة ، وهو رجل لا يطيق السكون أو الهدوء ، وإذن فلامفر من الرحيل[2] .

ومكث شكيب غير بعيد من سورية ، وشاهد فيصل الأول وهو يجلس على عرشها ملكا عربيا ترنو إليه الأبصار وملؤها الأمل والرجاء ، ففرح شكيب لهذا ، وتمنى المزيد من الخير لقومه وبلاده ، ثم رأى أن تركيا قد تبدلت فيها الأحوال ، فالكماليون قد ألغوا الخلافة ، وأداروا ظهرهم للإسلام والمسلمين ، وللعرب بطبيعة الحال ، فلم يبق مجال أمام شكيب لكى يفكر فى التوفيق بين العرب ودولة الخلافة ، فقد انتهت دولة الخلافة ، وبدت البغضاءُ للعرب من

---

(١) مجلة الشباب — عدد ١٣ من إبريل ١٩٣٨ ، وانظر أيضا عدد ٢ من فبراير ١٩٣٨ ففيه حديث عن سبب خروج شكيب من سورية .

(٢) انظر روض الشقيق ، ص ٢٤ .

من أفواه الترك أكثر من ذى قبل ، فراجع شكيب نفسه ، وكيف موقفه تكييفاً جديداً ، وأخذ يدعو إلى الوحدة العربية ، بعد أن كان يعمل لتحقيق الوحدة الإسلامية ، وكان أول من دعا إلى إنشاء جامعة عربية[1] .

يقول شكيب : « إننا منذ انتهاء الحرب العامة توجهت همتنا إلى إيجاد الوحدة العربية » .

ويحكى أن الملك فيصل الأول قال له : « أشهد أنك أول عربى تكلم معى عن الوحدة العربية ، وأراد أن تكون وحدة عملية »[2] .

ويقول شكيب أيضاً : « ولما وضعت الحربُ أوزارَها ، وتبين الرشد من الغى ، وعرف العرب أن الإنجليز غدروا بهم ، ازداد الملك فيصل اعتماداً بى ، وعرف أنى من أول الأمر لم أعارض تلك الحركة إلا خوفاً على العرب أنفسهم وحرصاً على الجامعة الإسلامية[3] » .

ويروى الدكتور رئيف أبو اللمع أن الأمير قال له بعد قليل من انتهاء الحرب العالمية الأولى : « العرب أمة كاملة ، أى أن لها جميع العناصر التى يقتضيها كيان الأمم من الوجهة السياسية والاجتماعية ، فلها عرق واحد ، ولسان واحد ، وأكثرية دين واحد ، وتاريخ واحد ، كما أن لها مصالح واحدة ، ومنافع واحدة ، وآمالا واحدة .

ولكن الذى فتّ فى عضد هذه الأمة وأضعفها وأفقرها وأقصاها عن السير فى موكب المدينة والرقى هو تفكك حلقاتها واستعمار الأجنبى لها ، فأنا جندى من جنودها له ثلاثة أهداف جلية واضحة تمام الوضوح ، الأول هو الاتحاد ، والثانى هو التحرر ، والثالث هو السير فى موكب النهضة والعلم والبحث[4] » .

* * *

(١) ذكرى الأمير شكيب ص ٤٥ من كلمة لحبيب جاماتى

(٢) ذكرى الأمير ص ٣٢٨ . وكتاب السيد رشيد رضا ص ١٦١ .

(٣) كتاب السيد رشيد رضا ص ١٥٥

(٤) ذكرى الأمير ص ٤٤٢

وبعد فترة سافر شكيب إلى برلين ، واشترى فيها بيتا رخيص الثمن ، خلالَ انخفاض النقد الألمانى ، وكان يعتزم الإقامة فى برلين ، ويقول شكيب عن هذا البيت من رسالة خطية له بين يدىّ بعث بها إلى السيد رشيد بتاريخ ٢ من ذى الحجة ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٤ م : « كنت اشتريت بيتا فى برلين أيام ذلك الرخص ، وهو وكالة فيها ٢٠ منزلا . أى عشرون عائلة . كل عائلة فى سكن من ٤ إلى ٦ غرف . والآن يساوى ٢٠٠٠ جنيه ، وربما يأتى وقت يساوى فيه ١٠ آلاف جنيه ، ودخله السنوى الآن ٧٠٠٠ مارك ذهب . كلها تذهب رسوماً ، لكننا نأمل المستقبل .

وفى هذه الرسالة يذكر أنه فى أزمة مالية شديدة . لكثرة النفقة والتبعات وقلة الموارد . وما تحتاج إليه رحلاته من أموال ، مع كثرة هذه الرحلات حتى يقول فى الرسالة عن نفسه : « هو من قطار إلى قطار . لا يستقر فى شرق ولا فى غرب » .

ورحب القومُ بإقامته هناك ، لسابق صلته بهم قبل الحرب ، فقد رافق الامبراطور غليوم فى أثناء زيارته لسورية . وكانت له صداقات مع عدد من القواد الألمان ، وكان ينتصر لألمانيا فى أثناء الحرب . بمقتضى أنها فى صف العثمانيين ، ومن قبل زار شكيب قبرَ الشاعر الألمانى المشهور « غوته » ومدحه ببعض شعره ، حيث قال :

مذ قال هذا بيت غوتة زرته ... إذ كان للشعراء كعبةَ قاصد
هو سيد الشعراء عند قبيله ... منه يجيد الدهر عقدَ فرائد
طأطأت رأس قريحتى فى بابه ... ولكم رأت عتباته من ساجد
إن لم يكن من أمتى وعشيرتى ... فالناس فى الآداب أمة واحد
« أوفاتنا نسب يؤلف بيننا ... أدبٌ أقامَ مقام الوالد[1] » !

* * *

(١) أناتول فرانس فى مباذله . هامش ص ٢٥٨ و ٢٥٩ . والبيت الأخير جاء على طريقة التضمين ، لأنه لأبى تمام وأصله « أو يختلف ... » إلخ .

دفاعه عن العروبة :

وفى سنة ١٩٢١ حضر شكيب المؤتمر السورى الفلسطينى الذى اجتمع بقاعة مبنى البلدية بقسم (بلا نباليه) بجنيف من ٢٥ من أغسطس إلى ٢١ من سبتمبر ١٩٢١ وكان رئيسه ميشيل لطف الله ، ونائب الرئيس السيد رشيد رضا، وسكرتيره العام شكيب أرسلان ، وقد طالب المؤتمر باستقلال سورية ولبنان وفلسطين والاعتراف بحقها فى الاتحاد ، وإعلان إلغاء الانتداب حالا ، وقد تحدثت عن هذا المؤتمر جريدة (منبر الشرق) لصاحبها على الغاياتى فى عدد ١٣ من مارس ١٩٥٣ .

وفى سنة ١٩٢٥ طالبه أعضاء اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى التى تألفت بالقاهرة سنة ١٩٢٢ بأن يكون ضمن الوفد العربى الذى يدافع عن قضايا العرب أمام جمعية الأمم بجنيف فى سويسرة ، فاستجاب لذلك ، وانتقل من برلين إلى جنيف .

ويبدو أن هذا الانتقال لم يأخذ شكله النهائى إلا فى ربيع سنة ١٩٢٦ ، وأن أسرته ظلت فى « مرسين » إلى هذا التاريخ ، ثم لحقت به بعد ذلك ، كما جاء فى جريدة الشورى حين ذاك[١] .

ويقول شكيب عن مهمته لدى جمعية الأمم : « وقمت بواجبى مصحوباً بالوثائق اللازمة ، ولكننى رأيت أنه لا يمكننى القيام بمهمتى هذه إلا بالإقامة الدائمة بسويسرة ، فعند ذلك استقدمت عائلتى من مرسين ، وألقيت عصا التسيار فى هذه البلاد »[٢] .

ويظهر أن الأمير كان يتردد على سويسرة فى رحلات قبل التاريخ السابق ، لأن الأستاذ على الغاياتى يقول إن الأمير حضر إلى سويسرة لأول مرة ونزل

---

(١) جريدة الشورى — عدد ٢٥ من فبراير سنة ١٩٢٦ حيث تقول إنها علمت أن الأمير سيقطن سويسرا وأن أسرته ستلحق به .

(٢) كتاب السيد رشيد رضا ص ٣٣٩

فى لوزان فى إبريل سنة ١٩١٩م[١] . وشكيب نفسه يذكر لنا أنه تقابل مع السيد رشيد رضا فى جنيف سنة ١٩٢٠ ، وأنه كان مقيما بها حينئذ[٢] .

واتخذ شكيب لنفسه بيتاً قريباً من بحيرة « ليمان » ، وهو « بيت متواضع الأثاث ، قليل الغرف والصالات ، ففيه صالة للاستقبال ، وغرفة للمكتبة ، وغرفتان للعائلة لا غير »[٣] .

وفى هذا المنزل المتواضع ظلّ شكيب ربعَ قرن يدافع عن بلاده ودينه ، ويطالب بحقوق العرب والمسلمين ، ويكتب ويؤلف ، ويبحث ويراسل ، وقد يرحل عنه إلى إيطاليا أو ألمانيا أو انجلترا أو أمريكا أو غيرها ، ثم يعود إليه ليواصل كفاحه من أجل العرب والمسلمين على مقربة من جمعية الأمم ، تحت اسم الوفد السورى الفلسطينى الذى اشترك فيه طائفة من رجال العرب أمثال ميشيل لطف الله ، ورشيد رضا ، وتوفيق اليازجى ، ورياض الصلح ، ونجيب شقير ، وسليمان كيخان ، ومنهم من استمر حيناً قصيراً وانصرف إلى شئون أخرى ، ومنهم من استمر حيناً أطول ثم انصرف ، ولم يصبر على مزاملة الأمير فى جهاده سوى إحسان الجابرى الذى اختلف معه كثيرا ، ومع ذلك ظل معه[٤] .

وكانت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى بالقاهرة أشبهَ بالمسيطرة على الوفد السورى الفلسطينى بجنيف ، وفى طليعته شكيب . وحدثت خلافات بين اللجنة والوفد ، وحاول ميشيل لطف الله رئيس اللجنة أن يزحزح شكيب عن قيادته الفعلية للوفد ، وذلك بإخراجه منه ، ولكنه لم يفلح ، لمثابرة شكيب من جهة ، ولمعاونة السيد رشيد رضا له من جهة أخرى[٥] .

---

(١) جريدة منبر الشرق عدد ٣٠ يناير ١٩٥٣

(٢) كتاب السيد رشيد رضا ص ١٥٠ وانظر أيضا ص ١٥٨ ففيها ما يفيد أنه كان مقيما بجنيف حينئذ

(٣) مجلة الفتح — عدد ٩ من ربيع الثانى ١٣٥١

(٤) كتاب السيد رشيد رضا ص ١٥٨

(٥) هناك حديث واسع عن هذه الناحية فى الرسائل المتبادلة بين شكيب ورشيد . ولنا عنها دراسة فى مجال آخر .

وقد انتهز أعداء العروبة والإسلام فرصةَ الخلاف المتكرر بين اللجنة والوفد ، وبين شكيب وميشيل ، فأخذوا يزعمون أن شكيب لا يمثل السوريين ، بل لا يمثل الدروزَ أنفسهم ، فأرسل سلطان باشا الأطرش زعيم الدروز التوكيلَ التالى إلى شكيب بتاريخ ١٥ من آب سنة ١٩٢٥م ونصه :

« عطوفة الأمير شكيب أرسلان الأفخم . . .

باسم عموم سكان جبل الدروز الذين اعتدت عليهم السلطةُ الفرنسوية بالضغط والاستبداد وضرب الطيارات ، وأنكرت حقوقَهم التى كانت اعترفت بها قبلا ، قد وكلنا عطوفتكم بمخابرة جمعية الأمم التى هى مسئولة عن أعمال الدولة المنتدبة فى سورية ، وتفهيمها أنا حملنا السلاح ، ودافعنا عن أطفالنا وعيالنا مضطرين ، بعد أن استعملنا كلَّ الوسائل السلمية الأدبية لرفع ظلم الفرنساويين ، وأن توضحوا لجمعية الأمم أنها أيضاً مسئولة عن دمائنا المسفوكة ظلماً ، وكذلك أن تعلنوا أن الله نصرنا على الظالمين .

وعطوفتكم أدرى بالأحوال التى أدت إلى ثورات كبيرة فى سورية ، وبحقيقة رغائب السوريين عامة ، ونحن منهم ، واقبلوا فى الختام فائق الاحترام »[1] .

وكان شكيب يتنقل بين سويسرة وألمانيا وغيرهما ، وفى سنة ١٩٢٥ أقيمت له عدة حفلات تكريمية فى ألمانيا ، فهذه حفلة أقامتها الجالية السورية والطلبة العرب بألمانيا . وهذه ثانية أقامها الحزب الوطنى الألمانى ، وثالثة أقامتها جمعية الشعائر الإسلامية ببرلين ، ورابعة أقامتها الجمعية العربية ، وفى كل حفلة منها يسمع شكيب الكثير فى مدحه وتقريظه ، وكذلك يقول الكثير عن قضايا العرب وحاضر العالم الإسلامى .

وفى نهاية سنة ١٩٢٧ وبداية سنة ١٩٢٨ دب الشقاق بين شكيب وبعض أعضاء الوفد السورى الفلسطينى ، وقرر شكيب ومعه رياض الصلح ترك الوفد ،

---

(١) جريدة الشورى عدد ٢٢ من أكتوبر ١٩٢٥

وتضاربت الأقوال فى سبب ذلك . وعللت جريدة (الشورى) القرار بطريقتها فقالت : « قد يكون الأمير وزميله سئما ، أو اعتراهما القرف ، ليس من صعوبة الجهاد السياسى مع الغاصبين . بل من سفاهة أغرار السياسة ، وتلون صغار الأحلام الذين تركوا مجاهدة الغاصب ، وولوا وجوههم شطر سب المخلصين للبلاد[1] » .

وروى أن السبب فى الخلاف هو أن « المسيو جوفنيل » المفوض السامى الفرنسى فى سورية استدعى الأمير إلى باريز للتفاوض معه فى القضية السورية سنة ١٩٢٨ ، واستجاب شكيب للدعوة ، وتقدم إلى المفوض بلائحة ، فغضب من ذلك ميشيل لطف الله رئيس الوفد السورى الفلسطينى ، ورأى أن فى هذا التصرف من شكيب افتئاتا على حق رياسته للوفد ، فحدث الشقاق بينه وبين شكيب ، ووجد لطف الله وأنصاره فى لائحة شكيب ما يصلح لإلهاب شعور الجمهور ضد شكيب . إذ كان فيها ما يلى :

١ — استخدام السوريين لأموال فرنسا فى الاستثمار إذا احتاجوا إلى أمـــوال .

٢ — جميع قروض سورية تكون من فرنسا إذا احتاجت ســـورية إلى قروض .

٣ — مدربو الجيش السورى يكونون من فرنسا .

٤ — تعليم اللغة الفرنسية يكون عاما إلزاميا فى سورية .

٥ — تعقد محالفة بين سورية وفرنسا لمدة ثلاثين سنة .

٦ — تتبادل الدولتان الإعانة بالجنود فى حالة الحرب ... إلخ[2] .

وقد يرضى بهذه الأمور أصحاب التدرج فى نيل الحقوق ، ولكن الشعوب لاترضى بهذا ، ولذلك سببت اللائحة لشكيب قدراً كبيرا من المتاعب ، وهو نفسه

---

(١) جريدة الشورى عدد ٢٩ من ديسمبر ١٩٢٧

(٢) المرجع السابق عدد ٢١ من يونيه ١٩٢٨

يقول : « لذلك منذ وصلت لأتحى إلى اللجنة التنفيذية توجهت عليها الاعتراضات ، بعضها من أناس وطنيين مخلصين ، كانوا يظنون أن المبالغة فى التشديد أجدر بالمصلحة الوطنية وأدنى إلى النجاح ، وبعضها من أناس متعنتين ليس لهم مرمى إلا الانتقاد بأى وجه كان ، وهم لطف الله وجماعته[1] » .

* * *

رحلة إلى أمريكة وروسية :

وفى شتاء سنة ١٩٢٧ دعى شكيب من عرب المهجر فى أمريكا الشمالية إلى زيارتهم فى موطنهم ، ليرأس المؤتمر الذى عقدوه فى بلدة « ديترويت » فلبى الدعوة ، ووصل نيويورك يوم ٤ من يناير سنة ١٩٢٧ ، وأقيم له كثير من حفلات التكريم التى قيل فيها الكثير عن تخصه وجهوده ، كما قال فيها الكثير عن العروبة والإسلام ، وهناك هاجمته بعض الصحف التى يصدرها اللبنانيون ، ووصفوه بأنه الرجل الثانى بعد جمال باشا السفاح القائد التركى الذى قتل عدداً من أحرار العرب بلبنان خلال الحرب العالمية الأولى ، وقد رد عليهم شكيب مفندا تهمهم فى سلسلة مقالات نشرتها جريدة « مرآة الغرب » أعاد فيها كثيراً من أقواله التى نشرها قبل هذه السلسلة بثلاث سنوات فى مجلة « البيان »[2] .

وفى نوفمبر سنة ١٩٢٧ دعى شكيب من روسيا لزيارتها بمناسبة الاحتفال بمرور عشر سنوات على تأسيس الدولة الحمراء . فتردد فى قبول الدعوة خوفاً من القيل والقال ، ولكنهم ألحوا فقبل . وخصصوا له عربة فى القطار ، واستقبلوه استقبالا حماسياً . وشاهد العرض العسكرى الروسى فى موسكو ، وعاد فكتب مشيداً « بنظافة الجند ، وحسن شارتهم ، ورشاقة حركتهم ، واتحادهم » .

وتساءل : لماذا لا يعقد العرب صلات رسمية مع روسيا ؟ . وقال إن

---

(١) المرجع السابق عدد ٢٨ من يونيه ١٩٢٨

(٢) المرجع السابق عدد ٢٦ من مايو ١٩٢٧

الكراهية كانت بين العرب والروس بسبب الدولة العثمانية ، وقد انفصل العرب عن تركيا : « ولما لم يبق للعرب علاقة بتركيا فليس بيننا وبين الروس إلا المودة والصفاء والسلام »[1] .

* * *

رحلتا الحج والأندلس :

وفى سنة ١٣٤٨ هـ — ١٩٢٩ م حج شكيب ببيت الله الحرام بدعوة من الملك عبد العزيز آل سعود ، حيث تقابلا وتحادثا . وأعجب الملك بالأمير ، وكتب شكيب عن رحلته إلى الحجاز كتابه « الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف » .

وأصيب شكيب فى أثناء الرحلة بتحرك مرض الصدر عليه ، وهو المرض الذى أصابه من قبل فى أوربا[2] . فقضى بسبب ذلك مدة فى مدينة الطائف . وعاد من حجه إلى مصر يوم ١٨ من سبتمبر ١٩٢٩ م[3] . ولقى أمه فى مدينة السويس حيث قضى أربعة أيام ، ثم عاد إلى سويسرة .

وفى ربيع سنة ١٩٣٠ كتب شكيب يصور جهوده ومتاعبه فيقول :

« نحن هنا فى ديار غربة ، وجميع أشغالنا نقوم بها بأنفسنا ، إذ ما معين ولا مساعد ، ونكتب بخطنا ألفا وخمسمائة صفحة فى كل شهر ، إذ ليس عندنا كاتب سر ولا حافظ أوراق . ولدينا أشغال كثيرة مدهشة تتعلق بمهمتنا السياسية التى هى قضية سورية وقضية فلسطين وغيرهما من القضايا العربية .

وعلينا أن نقرأ الصحف اليومية ، وكثيراً من المجلات والكتب ، وأن نراقب حركة العلم والسياسة ، وحق العلم أن يطلب من المهد إلى اللحد ، ولقد بلغنا سن الستين ، وأصبحنا مضطرين لمداراة صحتنا ، وتجدنا نغسل أعيننا بمغلى

(١) المرجع السابق عدد أول ديسمبر ١٩٢٧ وعدد ٨ من ديسمبر ١٩٢٧

(٢) كتاب السيد رشيد رضا ص ١٨٧

(٣) جريدة الشورى عدد ٢٠ من سبتمبر ١٩٢٩

(البابونج) مرتين وثلاثا كل يوم بدون فتور ، تسكينا للحريق الذى يصيبها من فرط الكتابة والمطالعة[1] » .

وفى صيف سنة ١٩٣٠ قام شكيب برحلته إلى الأندلس (أسبانيا) ماراً بفرنسا ، دارساً الأماكن التى فتحها العرب فى تلك البلاد ، وقد بدأ رحلته يوم ١٨ من يونيه ١٩٣٠[2] من لوزان إلى باريس ، ثم زار جامع قرطبة ، وأخذت له صورة وهو جالس داخل المسجد ، وقد نشرت هذه الصورة فى أول كتاب « ذكرى الأمير شكيب أرسلان » . وزار بقية المشاهد العربية هناك .

ورجع شكيب من رحلته فى وسط سبتمبر سنة ١٩٣٠[3] ، وكتب عن هذه الرحلة كتابه « تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط » حيث تحدث فيه عن أمجاد العرب وفتوحاتهم فى هذه البلاد ، وعما خلفوه فيها من آيات الحضارة والمدنية .

وفى هذه السنة بدأ يصدر مجلته « الأمة العربية » باللغة الفرنسية ، ليدافع فيها عن قضايا العرب باللسان الفرنسى ، وجعل يسجل فيها جهود العرب ومحاولاتهم للتحرر والاستقلال ، ويحرض قومه على الكفاح والنضال ، وينوه بثوارهم ويشيد بأبطالهم ، غير مبال بغضب المستعمرين عليه من إنجليز وفرنسيس .

* * *

جهود ومتاعب :

وفى سنة ١٩٣٤ م وقعت حرب بين ابن سعود ملك الحجاز والإمام يحيى ملك اليمن ، وقرر المؤتمر الإسلامى بالقدس أن يؤلف وفداً يسعى بالصلح بين الدولتين العربيتين المسلمتين المتحاربتين ، وكان فى هذا الوفد الحاج أمين الحسينى ، وهاشم الأتاسى ، ومحمد على علوبة ، وشكيب ، وكتب لهذا الوفد

(١) جريدة الشورى عدد ٣٠ من أبريل ١٩٣٠ مقال لشكيب عنوانه « لطفا وعطفا » .
(٢) تاريخ غزوات العرب ص ١٠ .
(٣) الشورى ، عدد الأول من أكتوبر ١٩٣٠ م .

التوفيق ، فوقفت الحرب بين البلدين المتجاورين الشقيقين ، وعقدت معاهدة الصلح[1] . وفى أثناء عودته حاول أن ينزل مصر ، فلم يستطع ، إذ منعت السلطات زيارته لها ولو لأيام معدودات . فعاد إلى أوربا ليواصل جهاده من أجل العروبة والاسلام ، بعد أن زار الحجاز فى عودته ومكث به مدة .

وفى سنة ١٩٣٤ أيضاً التقى شكيب ومعه إحسان الجابرى بزعيم إيطاليا (موسولينى) وتباحثا معه فى موضوع القضية الطرابلسية ، ويقول شكيب فى هذا المجال :

« ونحن ما تفاهمنا مع موسولينى إلا بعد أن رأينا أنه لم يبق سبيل إلى المقاومة بالسلاح . وأن بقاء الحالة على ما كانت عليه آيل إلى انقراض الإسلام من القطر الطرابلسى ، فرجحنا طريقة المسالمة . على شرط إعادة المشردين من العرب ، وإرجاع الأوقاف والأراضى المضبوطة والعفو عن المحكوم عليهم والمسجونين بسبب الجهاد السابق ، وإشراك الأهالى فى إدارة البلاد ، ومنع الدعاية الدينية المسيحية بين المسلمين ، وتسهيل رجوع المهاجرين إلى أوطانهم ، وغير ذلك مما شرحناه فى الصحف مراراً » .

ثم يذكر شكيب أن مسالمة العدو لأجل مصلحة الإسلام أمر جائز ، والنبى صالح المشركين فى الحديبية ، وكذلك ولاة المسلمين يصالحون الأعداء إذا تبينت لهم المصلحة فى الصلح[2] .

وقد أطال شكيب خلال رسائله ومقالاته الدفاع عن اتفاقه هذا مع موسولينى ، مؤكداً أنه نفع للإسلام والمسلمين ، فى حين أخذ الكثيرون ينقدون الأمير أو يهاجمونه بسبب هذا الاتفاق .

عاد ليكتب ويبحث ويقدم المذكرات والاحتجاجات ويذيع النداءات إلى جمعية الأمم ورجال الدول وغيرهم ، حتى إنه يخبرنا أنه فى سنة ١٩٣٦ جمع

---

(١) مجلة الكتاب عدد فبراير ١٩٤٧

(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، هامش ص ٧٤٥ و ٧٤٦

ما كتبه من هذا القبيل منذ قدم أوربا حتى هذه السنة ، فوجد ذلك يقع فى خمسة عشر إلى عشرين مجلدا ، وأنه يتعذر عليه طبعُه لكثرة نفقته ، فقرر إهداءه إلى نظارة الخارجية السورية[1] . فكيف بما كتبه قبل ذلك ، وما كتبه بعد ذلك ، وقد عاش بعد هذا التاريخ عشرَ سنوات ؟ . وكيف وهو يخبرنا بأنه لم يضيِّع دقيقةً واحدة من وقته ، وأنه يتلقى أكثرَ من ألفى مكتوب فى دور السنة ، وينشر من التآليف بضعة آلاف من الصفحات المطبوعة تأليفا[2] .

ويقول شكيب فى رسالة منه إلى الأستاذ محمد الفاسى :

« يوم عيد رأس السنة عملنا أنا وكاتبى حساب ما صدر عن قلمى من المكتوبات سنة ١٩٣٥ من أول يناير إلى ٣١ من ديسمبر ، نقلا عن دفتر قيود المكاتيب : يبلغ عدد المكاتيب الخصوصية ١٧٨١ ، وعدد المقالات ١٧٦ ، وقصيدتين ومقطوعة ، وعدا ذلك حررت كتاباً عن شوقى ٣٥٠ صفحة ، وحواشى ابن خلدون ٥٦٠ صفحة ، وطبعت (روض الشقيق) ديوان أخى ، وذيلته بتفسير ، وأودعته ترجمة أخى . ونسب العائلة ملخصا . لأن الأصل أطول مما قرأتموه فى روض الشقيق . . . وفى سنة ١٩٣٥ كتبتُ قسما غير قليل من الجزء الأول من كتاب الأندلس[3] . لكنى سأجعل ذلك عند تمام هذا الجزء من محصول سنة ١٩٣٦ إن شاء الله . وفى سنة ١٩٣٥ قدمت ديوانى للطبع ، وعلقت عليه تفسيرَ بعض ألفاظ ، وقريباً يتم طبعه وأهديكه ، وكتاب ليفى بروفنسال لخصته فى هذه السنة ، فأنت ترى أن همتى همة شباب لا همة شيوخ[4] » .

وفى سنة ١٩٣٥ ارتكب صحفى من فلسطين جريمة افتراء على الأمير ، بأن زور عليه كتابا باسمه موجها منه إلى الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين ، ونشره فى مجلة « الجامعة الإسلامية » . ويتضمن هذا الكتاب المزور أن الأمير

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ص ١٥٨ .
(٢) المرجع السابق ص ١٦٢
(٣) يقصد كتابه (الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية) .
(٤) ذكرى الأمير شكيب ص ٣٣٨ .

قد تواطأ مع الحاج أمين الحسيني على الدعاية لإيطاليا والسير فى ركابها ، فى مقابل مال يأخذانه منها ، وعلى الرغم من الفرق الواضح بين أسلوب الكتاب وأسلوب شكيب ، وعلى الرغم مما فى الكتاب من ركاكة تعبير وسوء تفكير وأخطاء فى النحو ، فإن الأمير خشى أثر نشره بين الناس ، فهب يدافع عن نفسه ، فراسل زملاءه مكذباً ، وأرسل كلمات إلى الصحف والمجلات يفند فيها هذا الافتراء ، وكتب يقول إنه لم يقم بدعاية لإيطاليا ، ولم يذع شيئاً يؤيدها ، بل بالعكس قد سبق له أن هاجم إيطاليا بسبب ترحيلها العرب من منطقة « الجبل الأخضر » وقرر مقاضاة الجريدة لتظهر الحقيقة كاملة[1].

وقد حدثنى الحاج أمين الحسينى — وكان الأستاذ منيف الحسينى حاضراً — فذكر أن هذا الخطاب المزور قام بتزويره فخرى النشاشيبى المتهم بالتعاون مع الاستعمار ، وشريف الشنطى المتهم بالتوسط فى بيع الأراضى الفلسطينية لليهود ، وعيسى العيسى صاحب جريدة فلسطين حينئذ ، وأنه اختير للنشر يوم الجمعة ، يوم موسم خروج النبى موسى ، وهو موسم مشهور مجموع له الناس ، ونشروا الخطاب المزور فى مجلة « الجامعة الإسلامية » لصاحبها سليمان التاجى الفاروقى ، وكانت تصدر فى يافا ، وقد تولت مجلة « الجامعة العربية » لمحررها الأستاذ منيف الحسينى تفنيد التهمة ، ونشرت صورة الكتاب المزور ، وصورة كتاب حقيقى بخط شكيب ، وقارنت المجلة بين الخطين ، وأبانت التزوير .

والواقع أن هذا الخطاب المزور قد أقلق شكيب وحرمه النوم والراحة والاستقرار ، ولعل هذا يتضح بجلاء من رسالة خطية بعث بها إلى السيد رشيد رضا بتاريخ ٨ من صفر ١٣٥٤ — ١٩٣٥م وفيها يقول :

« عسى أن يكون الناس اطمأنوا من جهة تزوير الكتاب الذى نشره ذلك الاحمق المنافق ، لأنه ليست الحماقة فقط هى التى حملته على نشر هذا التزوير ، بل طمعه فى مال اليهود ، فنشره وهو يضمر أنه إذا انطلى على الناس فيكون قد قضى غرضه : أكل المال ، وشفى صدره من رجل كان يحسده فى الباطن ،

---

(١) انظر مجلة الفتح عدد ٢٩ من المحرم ١٣٥٤ وعدد ٦ من صفر سنة ١٣٥٤ .

ويتودد إليه فى الظاهر ، كما هو شأن الكثيرين . وإذا عرف الناس حقيقة التزويرة تراجع إلى الوراء ، وقال : إنه انطلى عليه .

وقد بدأ يتراجع منذ اليوم ، ويقول : لسنا أنبياء ، وقد أتونا بهذه الوثيقة فصدقناها ، وإذا ثبت أنها تزوير ننشر أيضاً ثبوت تزويرها .

فتأمل فى هذا النفاق ، والحق أنهم أقدموا على تزوير ندر نظيره فى تاريخ العرب ، لا أقول إنه لم يقع أصلا ، ولكنى أقول إنه ندر جداً ، والآن صرتُ أقدر أن أخبرك بأنه لولا لطف الله لكان قضى على من شدة الألم ، فإنى لما رأيت هذا الكتابَ المزور ، وكنت أعلم كثرة حسادى وأعدائى ، وأعلم أيضاً غباوة الناس ، وأنهم إذا رأوا خطأً يشبه خطى أسرعوا بالتصديق ، وأعلم أنه إذا انتشر هذا الزور شرقاً وغرباً قال أكثر الناس عنى : هذا رجل منافق ، بقى يدعى خدمة الإسلام خمسين سنة ، فإذا به خادم لدولة أجنبية على أمته .

ولا يكثر على الحساد من جهة ، وعلى الأغبياء من جهة أخرى أن يقولوا ذلك ، فقد كوفئ من هو خير منى فى الإسلام بما هو شر من التزوير ، أو إن لم يكن شرا منه فبمثله .

نعم عندما تأملت ذلك ، وتأملت فيما بلغ إليه العرب من قلة الدين كدت أصعق ، ويجوز أن تكون حصلت لى سكتة دماغية أو قلبية ، وأن أموت فيحرم أولادى الصغار والدهم . وأهم من هذا أن أموت قبل أن يتيسر لى البرهان عن براءتى ، ونشر البيانات اللازمة لإثبات تزوير الكتاب المنسوب إلى ، فكنت أموت حينئذ موتاً أدبياً وبدنياً معاً

لكن الله المحيط بكل شئ لم يرد أن أكون مظلوما بعد نصح خمسين سنة وبلايا كثيرة ، فما مضت عشية أو ضحاها حتى ابتدأ الناس يعرفون التزويرة ، وجاء تكذيبى الأول بالبرقيات ، فاطمأن أكثر الناس . ولعل المقالات قد انتشرت الآن فازدادوا اطمئنانا ، فإنى كتبت أربع مقالات إلى (الجهاد) قد تبلغ سبعين صفحة ، وكتبت ٣٠ صفحة إلى (الكوكب) ، وكتبت ٣٠ صفحة

إلى (الجزيرة) فى الشام ، ومثلها إلى (القبس) ، وكتبت نحواً من ٦٠ صفحة إلى (الجامعة العربية) ، هذا عدا ما كتبته من المكاتيب الخصوصية المسهبة إلى كل الأقطار ، بحيث إذا قدرت ما حبرته فى ١٥ يوما — أى مذ رأيت الكتاب المزور — يبلغ خمسمائة إلى ستمائة بالأقل ، ولا زالت صحتى كما كانت ونشاطى كما كان ، لأن معرفتى براءة نفسى جعلتنى فى هذه الحملات أسدا عاديا وسيفا ماضيا . سألتك فى الكتاب الأخير أن تخبرنى عن أسعد داغر هل يقول : إن هذا الكتاب مزور أو لا ؟ فقد جاءنى من فلسطين أنه كان من المجتهدين فى إثبات صحة الكتاب »[1] .

ولما كتب السيد رشيد إلى الأمير شكيب يأخذ عليه مبالغته فى كشف تزوير هذا الكتاب ، رد عليه الأمير برسالة خطية هى بين يدىّ تاريخها ١٢ من صفر ١٣٥٤ — ١٩٣٥ م وفيها يقول :

« .. قضية الكتاب المزور تقولون إن الناس كلهم عرفوا تزويره ، وأننى بالغت فى الدفاع عن نفسى . فهل ترى من باب حب الجدل إذا قلت لك إنه فى أول الأمر كان أكثر الناس مصدقين أن هذا المكتوب هو منى؟ نعم الخطأ وقع من أخينا الجابرى فبدلا من أن يبرق لى نهار صدور المكتوب المزور — أى ١٨ من أبريل — أبرق لى برقية مبهمة ، معناها أن أنتظر الجرائد ، أى أنتظر ستة أيام حتى تصل جرائد فلسطين إلى جنيف ، كل هذا حتى لا يدفع أجرة برقية مطولة قد تكون جنيهين مثلا .

فمضت ستة أيام وأنا لا أعلم بشىء ، والناس لو كانوا من ثانى يوم قرءوا تلغرافاتى لكانوا بالأقل سكتوا وانتظروا مقالاتى ، ولكنهم لبثوا من ١٨ إلى ٢٥ لا يعلمون شيئاً من جوابى ، فرسخ فى أذهان الكثيرين أن الكتاب

---

(١) ذكر السيد رشيد رضا فى رسالة منه لشكيب أنه سأل أسعد داغر عن هذا فأجاب داغر بأنه لاشك فى أن الكتاب مزور (انظر كتاب السيد رشيد رضا ص ٧٨٢) وفى هذا المرجع جاء أن الشخص المزور هو « ف . ن » وقال شكيب فى التعليق إن الاسم موجود ، ولكنه اقتصر على أول حرف من اسم الشخص وأول حرف من اسم عائلته .

صحيح ، ولاسيما أن الدعاية اليهودية الفرنسية — لأن اليهود والفرنسيين شيء واحد اليوم — كانت ملأت الدنيا ، فكيف أسكت أولاً أكتب إلى كل جهة ببراءة نفسي من فظاعة كهذه » ؟

واستمر شكيب في رسالته على هذا النمط من شدة الانفعال والتأثر بهذا التزوير .

وكان هذا التزوير سبباً في تفكير شكيب في اعتزال الوفد السوري والعكوف في بيته على القراءة والكتابة ، كما صرح بذلك في رسائله إلى رشيد ، كالرسالة المؤرخة بتاريخ ٢٥ من ربيع الأول ١٣٥٤ هـ ، والرسالة المؤرخة بتاريخ ١٠ من ربيع الثاني ١٣٥٤ هـ .

وفي سنة ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م أرسل شكيب أسرته المكونة من زوجته وبنتيه « مي » و « فاطمة » وابنه « غالب » إلى لبنان للاصطياف هناك ، وبعد قليل عاد « غالب » وحده إلى والده ، ولكن الولد أحس بالشوق إلى أختيه ، فقال له أبوه شكيب :

« إني أشد منك عذابا في فراقهن ، لكني لا أريد أن يخرجن افرنجيات ، فلو ربيتهن في جنيف لخرجن بدون لغة عربية ، وبدون عقيدة إسلامية ، وما يعود ممكنا إعادتهن إلى الحجاب متى ذهبن إلى الوطن ، والحاصل أريد تربية بناتي على أسلوب عائلتنا الأصلي ، لا على الأسلوب الذي لا يحدن غيره في جنيف » . وقال لولده أيضاً :

« أنا يجوز ألا أرى وطني ، ولكن إذا توفاني الله في أوربا فلابد لكم أن تعودوا إلى الوطن حالا ، فأنتم لا تقدرون على معيشة أوربا ، فكيف تعودون إلى الوطن وأنتم متفرنجون ؟ هذا لن يكون[1] » .

وفي سنة ١٩٣٥ أيضا رأس الأمير شكيب المؤتمرَ الإسلامي الأوربي ، الذي انعقد لمدة أربعة أيام ابتداء من ١٢ من سبتمبر بفندق فيكتوريا بجنيف ،

(١) ذكرى الأمير شكيب ص ١٤٢

واشترك فيه سبعون عضوا وفدوا من الشرق والغرب ، واعتبر هذا المؤتمر فرعا للمؤتمر الإسلامى المنعقد بالقدس فى ديسمبر سنة ١٩٣١ ، وكوّن المؤتمر لجنةً دائمة كانت مهمتها إحكام الروابط بين مسلمى أوربا ، وتسهيل الأعمال الخيرية ، والمحافظة على المصالح الإسلامية ، وإطلاع غير المسلمين على تعاليم الإسلام الصحيحة ، وتوثيق العلاقات بين الشرق والغرب ، وإذاعة النشرات ، وعقد الاجتماعات ، وإلقاء المحاضرات ، وتنمية العلاقات الاقتصادية بين تجار المسلمين فى أوربا وتجار المسلمين فى الأقطار الإسلامية .

ومما يذكر أن المؤتمر فى جلسة يوم الجمعة ١٣ من سبتمبر وقف الجلسةَ ليتاح للحاضرين صلاة الجمعة ، وقد ألقى الأمير شكيب خطبة الجمعة ، فى الفندق وأمَّ المصلين[١] .

وفى سنة ١٩٣٧ سمح الانتداب الفرنسى فى سورية ولبنان لشكيب بزيارة بلاده ، فوصلها فى ٣ من يونيه ١٩٣٧ ومعه زميله إحسان الجابرى ، واستقبلا استقبالا حماسيا قويا ، ورأى السيدةَ والدته ، وزار دمشق ، وخطب فيها أكثر من مرة ، مشيراً إلى مشكلة فلسطين ، وإلى معاهدة سورية مع فرنسا ، وقد نشرت مجلة « الشباب » الكثيرَ عن هذه الخطب[٢] . وكذلك زار حلب وخطب فيها وتحدث ، ولكنه وقف فى « الجامع الكبير » بها يخطب بعد أن طلب منه ذلك ، فكان مما قاله : « إن المسلم يستمد استقلاله من القرآن ، وإن إيمان المسلم غير الكامل إنما هو إيمان ناقص . ولا توجد الوطنية الصحيحة إلا فى قلب المؤمن العامر بالإيمان » .

وكان الرجل مرتجلا ، وكان يحرض المسلمين على كمال الإيمان ، ولكن أعداءه تلقفوا كلامه وحرفوه ، وأشاعوا أن الأمير يتهم غير المسلمين بأنهم لا وطنية عندهم ، ومعنى هذا أن المسيحيين فى نظر شكيب لا وطنية لهم ، مع أن الأمير يحرض على وحدة قومه ، ويكره التعصب ، ولذلك حزن شكيب

---

(١) منبر الشرق ، عدد ٢٧ من مارس ١٩٥٣ .

(٢) مجلة الشباب ، الأعداد ٩ و ١٦ و ٢٣ من يونيه ١٩٣٧ م

وأخذ يدافع عن نفسه ، ويفند التهمة المفتراة . وأصدر فى ذلك بيانات مختلفة[1] .

والواقع أن الرجل قد لاقى من أعدائه وحساده والحاقدين عليه والمنافسين له والناقدين له متاعبَ جمةً أضاعت عليه الكثير من وقته ، ونغصت عليه حياته فى أوقات كثيرة ، وكان من الممكن له — ومن الخير لأمته ولغته — أن ينفق هذه الأوقات فى البحث والكتابة !

وقد أرادت الحكومة السورية أن تعبر عن تقديرها لمكانة شكيب العلمية ، وجهوده فى سبيل وطنه ولغته ، وخدماته للعلم والبحث ، فاختارته رئيساً للمجمع العلمى العربى ، ولاشك أن هذا منصب يرضى الأمير ويعجبه من الناحية الأدبية ، لأنه يعتز بالمجمع ذاته ، ويعتز بعضويته القديمة فيه ، ولذلك نراه يكتب لقب « عضو المجمع العلمى العربى » تحت اسمه على أغلفة الكثير من كتبه مثل : كتاب تاريخ غزوات العرب ، وكتاب محاسن المساعى ، وكتابه عن السيد رشيد رضا ، وكتاب أناتول فرانس فى مباذله ، وكتاب الحلل السندسية.

ولكن فرنسا عادت فتنكرت للمعاهدة التى عقدتها مع سورية سنة ١٩٣٦ ، فاعتذر شكيب عن قبول الرياسة للمجمع ، إذ يجب أن يتفرغ للدفاع عن حرية بلاده الكاملة ، وترك بلاده على الرغم منه ، وعاد إلى أوربا ليواصل كفاحه من أجل العروبة والإسلام .

وبمناسبة ذكر عضوية شكيب فى المجمع العلمى العربى ورياسته له نذكر أنه كان ثانى رئيس للجنة الجرمانية الأفغانية التى تألفت فى برلين سنة ١٩٢١ ، وذلك باعتبار أنه رئيس النادى الشرقى فى برلين حينئذ[2] ، وكذلك اختارته الجمعية الآسيوية الفرنسية عضواً فيها وهو فى صدر شبابه ، وانتخبه المؤتمر الإسلامى الكبير المنعقد فى مكة المكرمة أميناً عاماً لسره[3] .

---

(١) انظر المرجع السابق ، أعداد شهرى يوليه وأغسطس ١٩٣٧ م .

(٢) مجلة الفتح عدد ٢٤ من يناير ١٩٢٩ م

(٣) مجلة الكتاب عدد فبراير ١٩٤٧ .

وكان شكيب يطوّف ما يطوف فى رحاب الدنيا ، ويتنقل شرقاً وغرباً ، ولكنه كان ممنوعاً من دخول مصر بسبب نفوذ الإنجليز فيها ، وسعى محمد محمود باشا حتى سمح له بزيارة مصر ، وجاء إليها فى أواخر فبراير ١٩٣٩ م وقوبل بحماسة شديدة ، ولما سئل عن شعوره قال :

« لا جرم أنى جد مسرور بالإذن لى فى دخول مصر ، بعد مضى ٢٧ سنة كنت فيها محروماً من موردها . وكان يمز علىَّ هذا الحرمانُ الأليم من دخول مصر التى كتبت أولَ مقالة لى بمطالبة الإنجليز بالجلاء عنها تاريخها فى أغسطس ١٩٠٩ ، أى كنت أناضل عن استقلال هذا الوادى المقدس من ٤٩ سنة ، وما زالت حياتى منذ ذلك العهد البعيد سلسلةَ مجاهدات متصلة الحلقات غير مخرومة — ولا فى يوم واحد — عن الشرق أجمع ، وبخاصة عن مصر التى هى كرسى الشرق ، إلى أن شاهدتُ بعينى تحقيق هذه الأمنية العظمى التى كنت أحلم بها ، وأنا لا أصدق كونى مدركها فى حياتى ، فإذا بى أحيا إلى أن اراها حقيقة واقعة مبشرة بحقائق أخرى آخذ بعضها برقاب بعض فى إعادة شأن الشرق وتجديد مجد هذه الأمة أبلغها الله أقصى آمالها . . . [1] » .

وفى يونيه ١٩٣٩ [2] ، تحدث شكيب عن الوحدة العربية ، وخطب وكتب فى ذلك ، ولما وجد شكيب فيما بعد أن مجلس النواب المصرى أثار فى مايو سنة ١٩٤٠ موضوعَ قضية فلسطين وسورية ، وطالب المجلس الحكومة بالتدخل لنصرة هذه القضية ، أبدى شكيب سروره بذلك ، واعتبره مقدمة من مصر للدخول فى الحلف العربى [3] .

وكانت حكومة سورية قد أذنت لشكيب قبيل وصوله مصر بالعودة إلى سورية ، ولكنه ما كاد يبلغ القاهرة فى سفرته هذه حتى سحبت الحكومة إذنها ، ولم

---

(١) مجلة الشباب ، عدد ٨ من مارس ١٩٣٩ .

(٢) جريدة العلم ، عدد ٧ من يونيه ١٩٣٩ .

(٣) ذكرى الأمير ص ٣٢٩

يبلغ شكيب ديارَه[1] .

وفى يوم الخميس ١٣ من يوليه ١٩٣٩ غادر شكيب مصر إلى سويسرا[2] ، بعد أن قضى فى مصر أكثرَ من أربعة أشهر .

وعند زيارته هذه لمصر دعته حكومة سورية ليسافر إلى دمشق ويرأس المجمع العلمى العربى ، فرفض هذه الرياسة ذاكراً أنه قبل رياسة المجمع فى أول الأمر على أساس أن هناك معاهدة بين سورية وفرنسا ، ولكن فرنسا نكثت عهدها ، وعادت تسلك مسلكها الاستعمارى فى سورية ، ولذلك فإنه يفضل العودة إلى سويسرة لاستئناف الجهاد .

عاد ليواصل كتابة مقالاته التى لايتقاضى عليها أجراً ، إذ كان يكتبها مجانا ، ماعدا خمسة آلاف صفحة من التآليف ، فإنه كان يبيعها لأصحاب المطابع ، ولكنه سود ثلاثين ألف صفحة من المقالات بلا أجر ، وكان فوق هذا يؤدى أجرة البريد من ماله .

* * *

ويذكر شكيب ان الأستاذ يعقوب صروف كتب إليه حوالى سنة ١٩٠٠ يقترح عليه أن يراسل (المقتطف) ، على أن يقدم له شيئا من المال فى مقابل تعبه ، فأجابه شكيب : « إننى وجدت لك فلانا وفلانا ، وعد له فريقا من الأدباء هم مستعدون للمراسلة ، على أن يكون لهم بدل الصفحة كذا ، فأما أنا فلست آخذ شيئاً على مراسلة المقتطف ، وإنما أخدم بذلك العلم »[3] .

ولما نقلت صحيفة (كوكب الشرق) مقالا لشكيب كان منشوراً فى جريدة (الشورى) ، واعتبر الأستاذ حسين شفيق المصرى هذا العمل سرقة كتب شكيب يعارضه ، وقال إنه يتمنى مثل هذا العمل ، وإن لفاعله الفضل ، ثم يقول : « نحن نخربش بعض هذه المقالات قياما بواجب وطنى نعتقد فرضاً علينا

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧٠ .
(٢) المرجع السابق عدد ١٩ من يوليه ١٩٣٩ .
(٣) عروة الاتحاد ، ص ٧ .

القيام به ، فأى جريدة اختارت نشر مانكتب فقد أوسعت دائرة النشر ، وكأنها آزرتنا على القيام بهذا الواجب الوطنى أو الإنسانى ، وعليه يجب لها الشكر » .

***

ونلاحظ أن الأمير كان يذيل أغلب مقالاته بتاريخ كتابتها ، بجوار توقيعه ، ويظهر أنه يتعمد هذا لأنه يريد أن يحدد الظرف الذى كتب فيه المقال ، حتى يفهمه قارئه فى ضوء هذا الظرف ، لأن الأمور تتبدل ، والأحداث تتوالى ، وما تحسن كتابته فى وقت قد تسوء كتابته فى وقت آخر . وقد يؤيد هذا الاستنتاج أن أغلب هذه المقالات المذيلة بالتاريخ هى من المقالات السياسية أو الاجتماعية المتعلقة بأحداث وزمان ومكان وأشخاص ونحو ذلك .

* * *

ولم تكن أيام شكيب فى أوربا مريحة من الناحية المادية أو المعاشية. والدكتور الطيب الناصر يذكر لنا أن الأمير كان يتعرض لأزمات اقتصادية ، ومع ذلك يتظاهر بالثراء إباء وشمما ، وكان أحيانا لا يستطيع دفع ثمن القهوة حيث يجلس ليتصفح صحف العالم فى سويسرا ، وكتب ذات يوم برقية يفند فيها مزاعم زعمها « بيتان » السياسى الفرنسى بشأن سورية ولبنان ، ولم يجد ثمن إرسال البرقية ، وفى سنة ١٩٤٢ كتب إلى صديقه الحاج أمين الحسينى المقيم حينئذ بألمانيا يرجوه أن يتوسط لدى حكومة ألمانيا حتى تسمح له ولو بنصف إيجار المنزل الذى يملكه شكيب فى برلين لحاجته إلى المال[1] .

وقد تحدث شكيب عن ضوائقه المالية أكثر من مرة فى رسائله إلى صديقه السيد رشيد رضا ، ففى رسالة مخطوطة بين يدىّ ، ليس بها تاريخ ، ولكن يظهر أنها كتبت عام ١٩٣١ أو ١٩٣٢ من جنيف ، يقول شكيب : « حالتى

(١) ذكرى الأمير شكيب ، ص ٤٨ و ٤٩ والسبب فى رجاء التوسط هو أن الألمان كانوا حينئذ يحرمون إخراج النقود من بلادهم ، ولذلك لم ينل شكيب ماركا واحداً ، ومع ذلك اتهمته إذاعة فرانسا بأن هتلر منحه لقب « ابن برلين » ، وذلك لتحطيم سمعته فى بلاده ، انظر محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان ، ص ٢٣

المعيشية أصبحت لا تطاق ، أنزلنا مصروفنا الشهرى من ٣٠٠٠ فرنك سويسرى — نحو ١٢٠ جنيهاً — إلى ألف فرنك ، وهذا غاية مانقدر أن نقتصد ، وهذه الألف يجوز أن نحصل عليها فى الشهر ، لكنى مدين بسبعمائة جنيه ، والمطالبات على مستمرة ، والباقى لى من المزرعة غير متحصل ، والبيت الذى لى ببرلين مرهون تحت ٦٥ ألف مارك ، ولكنه إذا طرح للبيع لا يشريه أحـــدٌ بأكثر من قيمة الرهن ، لأن الأزمة أنزلت أثمان الأملاك كثيراً .

ورطل الزيت كنا نبيعه من ٤ أو ٥ سنوات بعشرين قرشاً ، فنزل إلى سبعة قروش ، وكانت تأتينا إيرادات كلها نزلت ، ومساعدات كلها وقفت ، وأغلى بلاد أوربا اليوم سويسرة » . ويقول فى الرسالة إنه يود الرجوع إلى وطنه : سورية أو فلسطين ، لأن المعيشة فيهما أرخص بكثير ، ويقول إنه صار ابن ثنتين وستين سنة ، ويجب ان يفكر فى الموت ، وفى أولاده وفيما سيتركه لهم ، وإنه لو مات فإن أهل سورية لن يساعدوا أولاده وإن « التحمل والتجمل بلغا الأمد الأقصى وكل شىء بلغ الحد انتهى » ! .

وفى رسالة مخطوطة بين يدىّ بتاريخ ١١ من رمضان ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م نجد الأمير على الرغم من فقره وكثرة مطالبه يرسل إلى صديقه السيد رشيد رضا بمائة جنيه ، ليطبع بها رشيد كتابه « التفسير المختصر » ، ويقول له : « طيه تحويل بمائة جنيه منى ، إن تيسر لك إعادتها لى فى يوم من الأيام ، فذاك ، وإن لم يتيسر فهى حلال زلال لك ، وإن لم اساعدك أنا فى لأواء كهذه فما فائدة الصداقة » ؟ .

ثم يقول شكيب واصفاً ظروفه المالية :

« ووالله الذى لا إله إلا هو ليس عندى فضلة ، بل على دين ، والدين ٦٥ ألف مارك ، أى ثلاثة آلاف جنيه ذهب مرهون تحتها عندى بيت فى برلين ، كنا نرجو قبل الأزمة الحاضرة أن نبيعه بمقدار هذا الدين أو بأكثر قليلا ،

فجاءت هذه الأزمة فسقطت أثمان البيوت ، فصار إذا بيع لايأتى بالثلاثة الآلاف جنيه ، بل ينكسر علينا بالأقل ١٠ آلاف مارك ، أى ٦٠٠ جنيه . ولما اشتدت الأزمة ، وكان الرهن مستحقاً قام المرتهن يطلب دينه ويلح وينذر .

وأنى لنا بالمجيء بثلاثمائة فضلا ثلاثة آلاف ؟ فأسرعنا بالذهاب إلى برلين ، وبقينا ليالى لا ننام إلا غراراً[1] ، أقسم بالله منها ليلة ما رقدت فيها ولا لحظة . إن بعت البيت — وأى بيت ؟ ٢١ مسكناً منها ثمانية كل واحد خمسة محال ، و٢ كل واحد ثلاثة محال ، ودخله السنوى ١٤ ألفاً و ٤٠٠ مارك ندفع منها الضرائب والترميمات ، وفائض ٦٥ ألف مارك ويبقى شيء — خسرنا مستقبله ، ولا تكفى خسارة البيت حتى ندفع ٥٠٠ جنيه لإكمال دفع الدين .

وإ | حفظنا البيت فكيف نُسكت الدائن المرتهن وبدل رهنه مستحق الدفع ؟ . ثم الخمسمائة جنيه ، كيف أجدها بدون بيع زيتون فى (الشويفات) ، وأثمان الأملاك الآن نصف عما كانت ، فالأرق لم يكن بدون سبب .

ولكن الله فرج ، رضى المرتهن بأن يستمر على قبض الفوائد عن دينه بمعدل ٦ فى المائة ، وذلك من ريع البيت مثل ذى قبل ، لكن بشرط أن نستهلك من رأس المال نحوا من ١٣ ألف مارك . والمارك الآن محصور فى ألمانيا لا يخرج BLOJIE فيمكن شراء مائة مارك محصور بأربعين فرنكا سويسريا ، فمن هذه الجهة تكون الأزمة نفعتنا ، لأننا نقدر أن نشترى الثلاثة عشر ألف مارك بأكثر قليلا من ٥٠٠٠ فرنك سويسرى أى ٣٥٠ جنيها ، وهذه والحمد لله موجودة . ولو وجدنا أكثر منها لفككنا البيت كله ، لأننا نكون وفينا ثلاثة آلاف الجنيه الذهبية بألف وثلاثمائة جنيه .

لكن أين هذا المبلغ ؟ ولولا لطف الله الخفى لم توجد هذه الجنيهات الخمسون وثلاث المائة الذهبية التى سندفع بها سدس الدين . وبعد دفع

---

(١) الغرار : القليل من النوم .

ريع الدين ينزل بمجموع الفائض ، فيبقى لنا صافيا من ريع البيت نحو ألفى مارك — نعم مارك محصور — ونحن اليوم لا يهمنا إلا سكوت الدائن عن طلب كل رأس المال ، وقد فعل واكتفى بأخذ فوائد دينه وسدس رأس المال ، فهذه قضية سفرى إلى برلين » .

وهكذا مضى شكيب فى حياته ، يتعرض للدين وللضيق ولقبض اليد بسبب الحاجة ، وعاش مع أسرته عيشاً رقيقاً متواضعاً ، فى بيت متواضع ، ومع ذلك كانت نفسه رفيعة أبية تأبى الذل والضعة ، والمال الأجنبى ، وتتظاهر بالغنى والثراء[1] » .

* * *

وأخذت صحة شكيب تضعف ، فعيناه تتحرقان بسبب الإجهاد الموصول فى القراءة والكتابة ، والتنقيب والمراجعة . ومرض الكلى يغاديه ويراوحه ، وتصلب الشرايين يزيده مرضاً على مرض ، والشيخوخة التى أقبلت بكلاكلها وزلازلها ، والشعور بدنو الأجل فى دار الغربة ، والإحساس بالتبعة نحو الأولاد الذين نشئوا فى ديار أوربية ، وهو يريدهم عرباً فى بيئة عربية .

كل هذه البلايا زادته سقما على سقم ، حتى اضطر إلى الاستعانة بكُتّاب يملى عليهم رسائله الإخوانية ومقالاته السياسية والعلمية ، وقد بدأت هذه الاستعانة وشكيب فى نحو السابعة والخمسين من عمره[2] ، وفى السنوات الأخيرة كانت الكتابة تصعب عليه بخط يده ، فاتخذ له كاتباً يعطيه فى الشهر عشرة جنيهات إنكليزية[3] ، وهو الأستاذ محمود عبد الصمد (اللبنانى)[4] ، وهو من أدباء منطقة الشوف ، كما ذكر لى الأستاذ محمد على الطاهر أن الأمير

---

(١) محاضرات عن الأمير ، ص ٢٣ .
(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٦٢ و ١٦٣ .
(٣) عروة الاتحاد ص ٧
(٤) ذكرت لى ذلك زوجة شكيب .

استعان أيضاً فى الكتابة بالدكتور سيد الجاحر من بلدة طما بصعيد مصر ، وكان يطلب العلم حين ذاك فى جنيف ، لأن الطبيب منع شكيب الكتابة بسبب ضعف البصر وارتعاش اليد . وقد أطلعنى الأستاذ أحمد محمد نعمان اليمنى على رسالة خطية من شكيب إليه بتاريخ ٩ من ربيع الأول ١٣٥٩هـ — ١٩٤٠ م وفيها يقول له شكيب :

« أكون مسروراً يا ولدى إذا جئت لمعاونتى فى الكتابة ، نظراً لكثرة أشغالى ، واحتياجى إلى سكرتير ، وكون كاتب يدى فى هذه السنة تأخر فى لبنان ، فمتى وصلكم كتابى هذا فأرمعوا الرحلة ، واقدموا على موفقين مسددين إن شاء الله ، وأنا هنا أؤدى لكم عشرة جنيهات فى الشهر ، وهى كافية لمصروفكم فى جنيف ، وقد كان فى نيتى الاستعانة بكم عندما عزمت الذهاب إلى مصر ، لكن هذه العزيمة تأجلت الآن لأسباب ليس هنا موضعها ، فلم يبق إلا أن تحضروا إلى هنا ، والله يجمعنا بكم على أحسن حال » .

* * *

عودته إلى الوطن :

وانتهت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ ، وتقلص ظل فرنسا عن سورية ، وزال شبحها الاستعمارى السمج عن أرض الشام ، واستبد بشكيب الحنين إلى وطنه ، والشوقُ إلى داره ، وتمنى لو طار إليها من أول يوم زال عنها فيه كابوس الاستعمار الفرنسى ، ولكنه كان مثقلا بالديون ، فجعل يحاول ليبرئ ذمته مما لزمها ، وفى أثناء ذلك أرسل أمتعته وأورافه إلى لبنان ، وفى يوم ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٤٦ بلغ شكيب بيروت ، بعد أن مرَّ على الإسكندرية يوم ٢٨ أكتوبر ، ومنعته السلطات المصرية النزول من الباخرة ، وكان معه أخوه الأمير عادل .

* * *

وعاد الغريب إلى داره بعد أكثر من ربع قرن قضاه بعيداً عن وطنه ،

مجاهداً فى سبيل عروبته وإسلامه ، مدافعاً عن قومه بقلمه ولسانه ، بالعربية والتركية والفرنسية ، وهى اللغات التى كان يتقنها شكيب مع معرفة للإنجليزية وللألمانية لم يبلغ فيها مراده[1] .

عاد الغريب فرأى قومه وداره وأسرته ، وحظى بلقاء أمه ، السيدة الوالدة ، وعمرها حينئذ قد زاد على المئة ، وسعد بمشاهدة وطنه حراً مستقلا طليقا من أغلال الاحتلال والاستبداد ، واستقبله قومه بالتجلة والتكريم ، وأقيمت باسمه وعلى شرفه حفلات ومآدب واجتماعات ، واشترك فى تكريمه الشعب والحكومة .

ولكن المرض يزيد ، فهذا شىء من (التمرس) فى رجل شكيب يضاف إلى تصلب الشرايين ، والرمل فى الكُلْيتين ، ووهن الشيخوخة ، فلا تطول مقاومة شكيب لكل هذه الأوجاع أكثر مما طالت ، وقد دنا من الثمانين .

وقد أحس شكيب بدنو أجله قبل موته بأيام ، ويحدثنا الأستاذ عبد الله المشنوق أنه التقى بالأمير فى دار آل الغندور ببيروت ، وكان الأمير مجهدا قد ترك الفراش على الرغم من أمر الطبيب له بعدم مغادرته ، وسأله المشنوق عن مذكراته ، وهل سجلها ، فأجابه الأمير بأنه ممنوع من الكتابة ، ويده لا تقوى على إمساك القلم لخط كلمة واحدة .

فقال له : أنت تُملى علىّ وأنا أكتب .

فأجاب الأمير وهو يبتسم فى مرارة : وهل أقوى على الحديث ، وهو يتطلب جمع الأفكار وحصرها وتنسيقها ، وهذا ليس فى استطاعتى ؟ .

فقال المشنوق : « ولكن حرام أن يحرم العالم العربى وهو على عتبة نهضته الجديدة خلاصة تجاربكم واختباراتكم السياسية طوال ستين عاما من الجهاد فى سبيل العروبة .

---

(١) ذكرى الأمير ص ٣٤٨ .

فصمت الأمير قليلا وتطلع إلى ما حوله ، وقال :

« إنى مريض وأشعر بدنو الأجل ، وأنا أحمد الله عز وجل الذى سهل لى أن أفارق الحياة على أرض هذا الوطن الذى أحببته ، وقاسيت من أجله التشريد والنفى والاضطهاد . أجل سأموت هنا قرير العين ناعم البال ، فتختلط رفاتى بتربة هذا الوطن ، بعد أن أتم الله نعمتَه علىَّ ، فشهدته سيداً حراً عزيزاً . أنا سعيد أن أدفن فى تربة طاهرة ، لا ترفرف فوقها راية أجنبية ، وأنا سعيد أن ألاقى وجهَ ربى الكريم ، فأعيد هذه الأمانة إلى بارئها ، بعد أن تحققت أحلامُ طفولتى فى هذه الجامعة العربية حرسها الله ، وسأخبر رفاقى فى الجهاد بأن تضحياتهم لم تكن عبثاً » .

وتحدرت من عينى الأمير دمعتان ، ونهض واقفاً ، وجذب يد محدثه قائلا له : « لى وصية واحدة أود أن أوصى بها ، فهل تعدنى بأن تنقلها إلى العالم العربى بعد وفاتى » ؟ .

فأجابه : « لك العمر الطويل إن شاء الله » !

فقال شكيب : « لا ، بل تعدنى بنقل الوصية » .

فأجاب المشنوق : نعم .

وهنا طوقه شكيب بذراعيه المرتجفتين ، وقال بصوت كادت تخنقه العبرات :

« أوصيكم بفلسطين »[1] ! .

* * *

أيامه الأخيرة :

ويقص علينا الأمير عادل شقيق شكيب قصة أيامه الأخيرة ، فيقول : « إنه جاء معى من مرسيليا فى أواخر تشرين الأول ، وهو متعب يستبطىء

(١) ذكرى الأمير شكيب ص ٤٦٨ و ٤٦٩

سير الباخرة شوقا إلى الوطن ، فلما أقبلنا على بيروت ظهر عليه سرور شديد ، ثم توالى ورودُ الزائرين والمسلّمين شهراً كاملا ، فكان يستقبل المئات منهم في كل يوم ، ويحادثهم ثم يرافقهم إلى الباب برغم التعب الظاهر عليه ، فلما طال الأمر نصحت له ونصح له الأطباء بالتزام الراحة فلم يقبل .

وكان يجيب : إن رؤيتي هذا الوطن حراً مستقلا ، وهذه الأمة العربية متحدة هو ما كنت أصبو إليه وأعيش لأجله ، فلا يهمني بعد الآن طال عمري أم لم يطل ! .

وظل هكذا يزار ويزار حتى اشتد عليه تصلب الشرايين ، وانتهى إلى حدوث نزيف في شرايين الدماغ على أثر إجهاد نفسه بالرد على رسائل كثيرة ، فلم يستطع الطب الحيلولة دون قضاء الله الذي لا راد له ، وكانت وصيته الأخيرة « لا تنسوا فلسطين[1] » .

* * *

ويظهر أن المرض قد استبد به عقب وصوله بوقت قصير ، لأنه بعد عودته بيومين شعر بتعب في جسمه فلزم الفراش ، وأحضر له شقيقه عادل ممرضة تشرف عليه وهو في داره في بيروت ، ونصحته بألا يبدي حراكا في فراشه ، ولكنه غافلها قبيل موته ونزل من السرير ، فلم يقو على الوقوف ، فهوى إلى الأرض ، وأسرعوا إليه وأعادوه إلى فراشه ، ولكنه أصيب بفالج نصفي توقف معه لسانه عن الكلام[2] ! .

وأصيب خلال ذلك بنوبة قلبية شديدة استمرت أربعة أيام متوالية ، وكان حوله والدته وشقيقه عادل ولفيف من الأطباء[3] ، وظل شكيب هذه الأيام الأربعة في شبه غيبوبة ، واستعصى الداء على الأطباء ، وعجزت يد البشر ، وأقبلت

---

(١) المرجع السابق ص ٤٠٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨١ و ١٨٢ .

(٣) جريدة الأهرام ١٠ من ديسمبر ١٩٤٦ .

يد القدر ، فلفظ شكيب آخر أنفاسه ليلة الاثنين ١٥ من المحرم سنة ١٣٦٦ — ٩ من ديسمبر سنة ١٩٤٦م[1] .

مات ولم يترك خلفه — كما قالت لى السيدة زوجته — سوى كتبه وأوراقه وبعض زيتونات فى قطعة أرض ، وبيته فى برلين ، ونصيبه فى بيت أسرته المشترك بينه وبين أخوته .

* * *

واهتزت بيروت ومن حولها القرى والبلدان بموت شكيب ، فهؤلاء أمراء آل أرسلان يهرعون إلى جثمانه ليلقوا عليه نظرات الوداع ، وهؤلاء محبوه وعارفوه يسعون فوجا بعد فوج معزين باكين ، وهذه أسلاك البرق ترتجف وهى تبث نبأ وفاته فى بلاد العروبة والإسلام .

تأبينه ورثاؤه :

وفى ضحى اليوم التالى (١٠ من ديسمبر ١٩٤٦) نقل جثمان شكيب إلى الجامع العمرى ببيروت فى موكب حاشد ، وبعد أن صلوا عليه استأنف الموكب الضخم سيره إلى المتحف الوطنى ، تتقدمه فرق الجيش والدرك ، ووفود الهيئات والطلاب ، وفى صدر الموكب رئيس جمهورية لبنان الشيخ بشارة الخورى الذى ترقرق الدمع فى عينيه ، ولعله كان يتذكر حينئذ أن الأمير الأرسلانى سعى فى إنقاذ والده خليل الخورى ، وإعادته من منفاه فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، فقابل الشيخ بشارة الجميل بالجميل ، فسعى بعد ثلاثين عاما من صنيع شكيب ، وبذل جهده ليعود الأمير إلى لبنان . وحضر وفد من وزراء سورية للتعزية باسم الأمة السورية .

وفى ساحة المتحف تقبل آل أرسلان العزاء ، وألقيت الخطب التأبينية ، ثم نقل الجثمان فى موكب عظيم إلى مسقط رأس شكيب « الشويفات » ، حيث قام مشايخ عقل الدروز بالصلاة عليه ، وأبنه ممثلو مناطق الجبل بحضور وفود

---

(١) ذكرى الأمير ، ص ٨٧ و ٨٨ و ٣٤٨

من أقضية الشوف ، والمتن ، وكسروان ، والجنوب ، وجبل الدروز . تم دفن شكيب فى قبر خاص قرب مدافن أسرته غير بعيد من دارها[1] » .

وأقيمت لنا بين شكيب حفلات كثيرة فى بلاد العروبة والإسلام ، ولعل أبرزها الحفلة التى أقيمت بالقاهرة فى دار الأوبرا يوم الجمعة ١٧ من ربيع الأول ١٣٦٦ هـ = ٧ فبراير ١٩٤٧ ، وأذيعت بالمذياع ، وخطب فيها الأساتذة : محمد على علوبة ، وعزيز عزت ، وتحسين العسكرى ، وسامى الخورى ، وإبراهيم دسوقى أباظة ، ومحمد أحمد بن عبود ، ومحمد زين حسن ، وخليل مطران ، وعلى محمود طه .

وهذه هى قصيدة شاعر القطرين خليل مطران فى رثاء شكيب :

طُفىء الصباح بعين الإلهام وتعمد اللألاء جفن ظلام
وكأن شمس العبقرية كُفِّنت بعد ازدهار شعاعها بقتام
لولا شفوف حجابها عن شاحب من ضوئها لم يبد للمستام
تعتادنا والذكريات كأنها آثار رائعة من الأحلام
وهل استقر من الحقائق ذاهب إلا بأعلاق من الأوهام

* * *

لهفى على الخِدْن النبيل وعهده منذ التعارف كان فوق الذِّمام
لم ألفه فى العيش إلا نابها يرنو إلى الدنيا بطرف سام
ماذا بلوت من الشمائل حلوة فيه ومن صدق ورعى ذمام
أبغى الرثاءَ له فيرقى خاطرى حزنا ، ولكن أين صوب غمام ؟
لم يبق لى شعر ولا نثر ، وقد أخنى علىَّ تقادم الأعوام
ألقى الحدادَ على البصائر والنهى رزءُ المحابر فيه والأقلام
كم فى البوادى والحواضر بعده عين مؤرقة وقلب دام
فيها المعزِّى والمعزَّى واحد وشكاة لبنان شكاة الشام
ولِّى إمامَ المنشئين ، وكان فى تجديد شأن الضاد أى إمام
فكأنها والعصر ليس بعصرها رُدَّت عليها نضرةُ الأيام

---

(١) جريدة الأهرام — ١١ من ديسمبر ١٩٤٦ .

وفى أخو الأفذاذ من شعرائها ... فى جاهليتها وفى الإسلام
جارى الفحولَ ولم يقصِّر عنهم ... فى حلبة الإفصاح والإحكام
شتان بين الشاعر المطبوع فى ... إبداعه واللاقط النظام

* * *

العالم العربى من أطرافه ... بادى الوجوم منكس الأعلام
يبكى أمير بيانه ، يبكى فتى ... فتيانه فى الكرّ والإقدام
يبكى العصاميَّ الكبير بنفسه ... والسيد ابنَ السيد القمقام
ما زال ينفح دونه ومرامه ... ثم يكابده أعز مرام
حتى جلا الأعداء عن أوطانه ... وسما مكانُ العرب فى الأقوام
فثوى قرير العين ، موفور الرضا ... بثواب ما عانى من الآلام . .
أشكيب . حسب المجد ما بلغته ... شرقاً وغرباً من جليل مقام
فى كل قطر للعروبة خُلدت ... ذكراك بالإكبار والإعظام
كانت حياتك دارَ حرب جزتها ... فاستقبل النعمى بدار سلام

* * *

وهذه قصيدة الشاعر المصرى الأستاذ على محمود طه :

رزء العروبة فيك والإسلام ... رزء النهى . وفجيعة الأقلام
هو مأتم الأحرار فى متوثب ... بصفوفهم . مستبسل مقدام
أأبا الفدائيين ، صوتك لم يزل ... فى الشرق وحى يراعة وحسام
ونداء فاد تسأل الدنيا به ... أصريع حرب أم شهيد سلام ؟
لخلاص دار أو فكاك عشيرة ... خضت الحياة كثيرة الآلام
واجتزت جسر العمر بين عواصف ... هوج . وموج مزبد مترامى
وشهرتها حربا على مستعمر ... متجبر ، أو غاصب ظلام
تلقى ببسمتك العريضة نارها ... فى موكب من ذائدين كرام
متفرقين على البعاد منازلا ... متجمعين على هوى ووئام
كالبحر ماج وفى غواربه التقى ... ميل الربى وشوامخ الأعلام
وقفوا الحياةَ على الجهاد ، وقربوا ... دعة النفوس وصحة الأجسام
إرث الجدود الصيد أنت وهبته ... قلما يصاول دونه ويحامى
وشباب مهدور الدماء مجاهد ... فى الله عن عرب وعن إسلام

الطائر الغريد نازح جنة مسحورة الأفنان والأكمام
أفياؤها ظلل الدهور ، وأرزها أعلام آلهة على آطام
قامت على جبل أشم ، سماؤه مسرى البيان ومسبح الإلهام
تهدى إليه بكل مغرب كوكب أشواق نضوى لوعة وغرام
أم نحن إلى لقاء نجيبها وأب هو الوطن المشوق الظامى
يتساءلان : متى الإياب ؟ ويومه يوم الرحيل ولات حين مقام !

* * *

مرت «جنيف» بخاطرى فتمثلت صور الشهيد كأنهن أمامى
متوحدا فى غربة ، متوقدا بصبابة ، متفردا بسقام
شيخ يدب على عصاه ، وقلبه متوثب الآمال والأحلام
يطوى الثمانين الوضاء مليئة بمواكب للذكريات ضخام
وجلائل المأثرات مواثل وجحافل للحادثات جسام
هيهات ، ما أوهت قواه ولا ثنت من خطوه عن غاية ومرام
هيهات ، ما نالت على إرهاقها من قلبه ، فى نضرة ووسام
هيهات ، ما شابت بمر مذاقها فيه حلاوة روحه البسام
طلق الجبين على ندىّ شمائل كالفجر بين أشعة وغمام

* * *

يا ابن الإمارة ، نافضا من إرثها يده لنصرة مبدأ وذمام
حين الغنى والجاه فتنة معشر عن قومهم متخلفين نيام
صف كيف أبصرت الحياة وأنت فى عز الملوك وهيبة الحكام
ورأيت دنيا المالكين بعالم متخون متلون هدام
تومى إليك قصورهم ، وكأنها عين مقرحة وقلب دامى
ومضيت تنذر ، والوغى متسعر والأرض غرقى فى دم وضرام
فى حومة من قاهرين تربصوا بالمضعفين منافذ الأيام
عنت الشعوب لسيفهم ، فتألبوا يتنازعون مصاير الأقوام
يأبى يراعك أن يفارق راحة خلقت لرد تحية وسلام
بيضاء ، ملهمة البنان ، مزاجها فيض من الأضواء والأنعام
أخذت خناق الظلم فاستخذى لها وارتد يستر وجهه بلثام

وتعقبته تهز قبضة ثائر   فإذا حصون بها صريع حطام
وإذا الحصون الشامخات حجارة   منثورة ، والنار سحب قتام
وإذا المجاهد تحت غار جهاده   طهر اليدين مخضب الصمصام
روح تهز الشرق من أعماقه   وسنا تمزق عنه كل ظلام
ويد تعانقه برغم منية   وفم يقبله برغم حمام

* * *

وهذه قصيدة الشاعر اللبنانى الأستاذ شبلى ملاط :

وجمتُ فلم أملك لسانا ولم أع   مقالا غداة السهم مزق أضلعى
أينعون من أكبرته ووددته   ويبقى بيانى بعد فرقته معى ؟
أكان تلاقينا وداعا وغربة   وفاجأنا الناعى بشمل مصدَّع ؟
وشيكا تفرقنا ، وضاع رجاؤه   وضاع رجائى باللقاء ومطمعى
تمنَّى إلى لبنان عوداً ، فأعرت(١)   مساعى رئيس القوم مذ باشر السعى
وآخر ما خطته يمناه قوله :   بلبنان أبغى آخر العمر مضجعى ؟
بمطلع أحلامى ، وميدان صبوتى   وأطيب عهدى بالشباب ، ومرتعى
على أنه ما كاد يبلغ داره   ويلقى العصا حتى — ويا أسفى — نعى !
هوى الرجل الجبار علما وأمة   ولولا قضاء الله لم يتزعزع
وساد بنى « حوران والأرز » وحشة   وناح عليه العرب فى كل مربع
لعينيك يا لبنان صولة ثائر   على بغى بادى الوجه غير مقنع
رأى الوطن المأمول وهو مصفد   شبيها — وإن يأهل — بصحراء بلقع
رموا كل منفى بالأمير ، وكلما   ردوه ردوا منه المنافى بأشجع
ولو كثرت أمثاله فى جهاده   لما استأثر المستعمرون بموضع

(١) فى الحرب العالمية الأولى نفت السلطة التركية المرحوم خليل بك الخورى مدير التحريرات العربية فى متصرفية لبنان إلى فلسطين ، وما كاد يصل نابلس حتى علم صديقه الأمير شكيب بالأمر ، فاندفع وتوسط له ، ورده من نصف الطريق ، وحفظ رئيس الجمهورية هذا الجميل نحو والده ، وجاء وتوسط للأمير شكيب بعودته إلى لبنان فعاد إليه ، ولم تمهله منيته سوى بضعة أيام .

فيا أمة الضاد احزنى ، وتلهفى   عليه ، ويا دنيا العروبة فاجزعى
مضى الصاحب الحامى حقيقة قومه   بأرهف من غرب الحسام وأقطع
فتى صحب الدنيا بنوم مشرد   وفارقها من دون وفر وجمع
ولو شاء إثراء لأثرى ، وإنما   عن البذل والإحسان لم يتورع
تتبعت فى لبنان بالحرب خطوه   فألفيته للناس أرحم مرجع
يناصر مظلوما ، وينجد يائسا   ويعطى ، ويصغى سامعا كلما دعى
كذلك أخلاق المروءة والوفا   وجود الكريم المحتد المترفع
سجايا تبناها الأمير ، وإذ مضى   ظفرن يتامى فازعات لمفزع
فأعيت وما لاقت لها بعده أبا   يجود عليها بالكساء الموشع
وراحت وراء السجف تبكى ، ولا ترى   غنى عنه فى جو من الفقر أسفع
فيا لهف نفسى يوم أدرج فى الثرى   وغيض بحر العلم فى بضع أذرع
وكانت تضيق الأرض دون مرامه   ويبقى بعينيه الفضا قيد أصبع !
مضى باعث الطائى حبيب بنظمه   وواصل حبل النثر بابن المقفع
بعثت إليه الشعر بالأمس ضاحكا(١)   وها هو فى ذا اليوم تسقيه أدمعى !
أمير البيان انهارت اليوم دولة   لعمك من كسرى أعز وتبع
وما تاج كسرى فى العيون وقيصر   بألمع من تاج البيان وأسطع
خلوت إلى الذكرى أصوغ لصاحبى   بدمع رثائى أى عقد مرصع
ومما شجانى أن أرانى مودعا   وقد كنت أهوى أن يكون مودعى
وعدت إلى النجوى أحس بروحه   تهب الشذا منه فتغمر مخدعى
وتمثل لى فى الخلد تلقى بيانها   على شاطئ من كوثر الشهد مترع
وتسمعنى إحدى خوالدها التى   ترن على روحى وتملك مسمعى
فيأيها القيثار لحن وأبدع   ويا منطق الورقاء غرد وسجع
ويأيها الباقى بآثاره التى   تضوع كريا ذكرك المتضوع
ويا حامل الزادين : برك والتقى   إلى جدث من زاره يتخشع

(١) حينما عاد الفقيد من منفاه رحب به صديقه الشاعر بأبيات منها :

ثلاثون عاما فى الجهاد مريرة   تحملها حربا على كل أجنبى
وإن الأمير الجهبذ الحر دولة   متى غضبت أقلامه الشرق يغضب

ولولا انفراد (البيت) بالحج وحده   لحجوا ثراه من مُبَكٍّ ومُركِع
تركتَ فراغاً لم تصب أى أمة   مثقفة الأقـــلام منه بأروع
(أعادل) أنت اليوم ترس (لغالب)   ودرع اليتامى فى المصاب المروع
فإنى لأدرى أى عبء حملته   وتدمع عينى دمع تمرد مدمعى
ولـكنك السيف الذى قد عرفته   صقيلا متى تضرب به الدهر يقطع
ومهما يجل الأمر تزدد تجلدا   فتى الثورة الحمراء لا يتضعضع

* * *

ولو أردنا أن نورد ما قيل فى رثاء أمير البيان شكيب أرسلان شعراً ونثراً لاحتجنا إلى مئات الصفحات . . . عليه رحمة الله .

زوجة شكيب وأولاده

من عادة آل أرسلان — كما سمعت من زوجة شكيب — ان يتزوجوا من أسرتهم ، فإذا لم يتزوجوا منها تزوجوا من الشراكسة ، أو من أسرة الشهابى اللبنانية ، وشطر هذه الأسرة مسيحى . وشطرها الآخر مسلم .

ولم يرد شكيب أن يتزوج من أسرته ، بل طمحت نفسه إلى الزواج من فتاة شركسية ، فعرض تلك الرغبة على « متصرف الكرك » وهو فى اسطنبول ، وكانت الآنسة « سليمى » — التى تزوجها شكيب — مقيمة مع والدها القفقاسى الأصل « الخاص بك حاتوغو » فى بلدة « الصلت » بشرق الأردن ، ولما ماتت أم الفتاة رحل الوالد بابنته « سليمى » يريد العودة إلى قفقاسية ، وفى الطريق نزلا فى اسطنبول ، وكانت للوالد صداقة بمتصرف الكرك السابق الذكر ، فتلاقيا معه على مائدة غداء حضرها شكيب ، وكان المتصرف يريد أن يُرىَ شكيب الفتاة ليبدى فيها رأيه دون أن تعلم .

وأعجب شكيب بسليمى ، وكانت سنها حول العشرين ، وهو قد تجاوز الأربعين ، وخطبها وظلت مخطوبة له حينا من الزمن ، ثم تزوج بها فى بيروت سنة ١٩١٦ بعد مأساة المشانق التى أقامها جمال باشا السفاح ، كما ذكرت سليمى .

وقد أطلعتنى السيدة زوجة شكيب[1] على جواز سفرها ، فإذا اسمها

---

(١) قابلتها أول مرة فى القاهرة فى ٣٠ من أكتوبر سنة ١٩٥٤ ، فإذا هى سيدة فى نحو الستين ، وهى وسيمة برغم شيخوختها ، نحيلة شقراء ، عسلية العينين . شعرها بين الأحمر والأبيض ، دقيقة الأطراف ، معبرة الملامح ، تميل إلى الطول . وقد أهدتنى صورة لها مع ابنها غالب وهى فى شبابها ، وكتبت عليها العبارة التالية : « هدية إلى الصديق العالم الشيخ أحمد الشرباصى مع وافر التقدير . سلمى أرسلان حرم المرحوم شكيب أرسلان » . وتاريخ الإهداء ١٨ نوفمبر ١٩٥٤ . والمعلومات المذكورة هنا منقولة عنها .

فيه « السيدة سليمى بنت الخاص بك » ، وقالت لى : إن اسمها فى الأصل هو « سليمة » ، ولكن الأمير كان يناديها « سليمى » ، فغلب عليها الاسم الأخير .

والجواز المذكور صادر من المملكة العربية السعودية ، لأن السيدة الآن سعودية الجنسية ، وهو بتاريخ ٦ من المحرم ١٣٥٩ = ١٤ من فبراير سنة ١٩٤٠ (من القنصلية السعودية بمصر) وهو جواز مزدوج ، ملىء بالتأشيرات الدالة على كثرة التنقلات .

وقد ذكرت لى السيدة الجليلة أنها ولدت فى قفقاسيا فى جنوب روسيا من أمراء الشراكسة ، من بيت « الخاص حاتوغو » وتاريخ ميلادها حسب ما فى الجواز هو عام ١٣١٦ هـ = ١٨٩٨ م وكانت صغيرة حينما خرجت من قفقاسيا مهاجرة مع أبيها إلى شرق الأردن ، وذلك بسبب تمسك والدها بإسلامه ، مما عرضه لاضطهاد الروس فى قفقاسيا ، ونزلت مع والدها فى بلدة « الصلت » على مسافة من « عمان » .

وقد تزوجت سليمى بشكيب وهبى — كما قالت — لا تعرف العربية ، وإنما تعرف التركية فقط : ولكنها تعلمت العربية من زوجها ، وكانت على وفاق مع زوجها فى أغلب الأحيان ، لأنه كان يحبها وكانت تحبه ، وقد أهدى إليها كتابا مخطوطا لم ينشر . وقد سألتها : ألم يقل فيك الأمير شعراً ؟ . فقالت : لا . وقد تنقلت معه شرقا وغربا خلال جهاده الطويل .

وكان شكيب يحرص على شعورها ، ويترضاها . وقد ذكرت لى من قبيل ذلك أنه لما سافر إلى الحجاز سنة ١٩٣٤ عرض عليه الملك عبد العزيز بن سعود أن يرسل إليه جارية فرفض قائلا « إننى متزوج ، وأنا أحب زوجتى ، وفوق هذا فإن زوجتى تغضب على إذا عرفت » . ولما عاد شكيب قصّ القصة على زوجته .

وقد رزق شكيب من زوجته أولا بابنه « غالب » — أو محمد غالب — ولذلك كان أصدقاء شكيب ومعارفه يقولون له « أبو غالب » . وقد ولد غالب بلبنان فى بلدة « عاليه » قبل رحلة أبيه الطويلة إلى أوربا ، ثم رزق باينته « مى » التى وُلدت فى

جنيف ، وقد تزوجت بالسياسى اللبنانى المعروف كمال جنبلاط ، ثم رُزق شكيب بابنته « ناظمة » ، وقد ولدت أيضاً فى جنيف ، وظلت بعد وفاة أبيها فى سويسرا إلى سنة ١٩٥٢ .

وكان لشكيب فى سويسرا خادمة تسمى « خضرة بنت خالد بحبوح » ، وهى فتاة عربية ، من بلدة « النبك » بسورية ، وقد أخذها الأمير صغيرة ، ورباها وأحسن معاملتها ، وكانت تطهى له ألوانا من الطعام يحبها ومنها « الكبيبة » .

وفى يوم سفر الأمير إلى الحجاز من جنيف مساء ١٤ من مايو ١٩٣٧ خرجت « خضرة » إلى المحطة لوداعه ، وكانت فى نحو الثلاثين من عمرها ، وبينما كان القطار يجرب السير ظنت خضرة أنه قد بدأ رحلته ، وكانت بداخل القطار ، فسارعت بالنزول ، فزلقت قدمها فوقعت تحت القطار فماتت ، فحزن الأمير عليها حزنا شديدا ، وأجل سفره ، وفى اليوم التالى أقام لها مأتما كبيرا حضره العظماء . وقد رثاها شكيب بمقال طويل ظهر افتتاحية لمجلة الشباب ، وفيه يصور شكيب الحادث تصويرا مثيرا أخاذا ، ويبين كيف عاشت خضرة معهم اثنين وعشرين عاما ، وكيف لقيت مصرعها ، وكيف صلى عليها ، وسار فى جنازتها وزراء وسفراء وجم غفير من الشرقيين والأوربيين ، وكيف كانت روحا زكية طاهرة نقية أمينة مخلصة متقنة مدبرة . . . إلخ [1] .

هذه حياة شكيب ، فى إيجاز ، إذ لو أراد كاتب أن يكتبها على وجه التفصيل لكتب أضعاف ما كتبت .

* * *

ونستطيع أن نقسم حياة شكيب إلى مرحلتين بارزتين : الأولى تبدأ من ميلاده سنة ١٨٦٩ وتنتهى بانتهاء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ .

والمرحلة الأخرى تبدأ عقب انتهاء تلك الحرب ، وتستمر إلى سنة ١٩٤٦ حيث كان أجل شكيب قد انتهى .

وإذا لاحظنا أن نهاية كل مرحلة من هاتين المرحلتين قد اقترنت بانتهاء

---

(١) مجلة الشباب عدد ٢٦ من مايو ١٩٣٧ ، مقال « خضراء الشهيدة » .

حرب عالمية ، فإننا نستطيع أن نلاحظ أيضاً أن كل مرحلة فيهما قد اقترنت عند شكيب بتحول واضح فى حياته ونتيجة بارزة فى طريقه ، فالمرحلة الأولى انتهت بانتقاله من مجال عثمانى إسلامى ، إلى مجال عربى إسلامى ، والمرحلة الأخرى انتهت بمشاهدته لبلاده حرة مستقلة . وبانتهاء حياته الطويلة وانتقاله إلى الرفيق الأعلى .

وقد مرت حياته بمراحل ، فهو يبدأ صبياً يتعلم ، ثم يحاول الإسهام فى الشعر والأدب لإظهار النفس وإثبات الذات ، فيكون من وراء ذلك ديوانه « الباكورة » . ثم تسيطر عليه الفكرة الإسلامية مع النزعة العثمانية الممثلة للخلافة رسميا ، وذلك بعد أن تأثر بجمال الدين ومحمد عبده ، ثم تتضح هذه النزعة بتوسع خلال الحرب العالمية الأولى . ولكنه بعد انتهاء الحرب ، وبعد تمزيق العالم العربى ، وبعد ضياع عرش الخلافة ، وبعد إلحاد الكماليين ، انقلب ضد الأتراك ، وأخذ فى شعره وكتابته يحاول التوفيق بين العروبة والإسلام .

ثم شغل نفسه بقضايا وطنه وقومه السياسية ، فجاهد فى سبيل سوريا ولبنان وفلسطين ومصر وبقية البلادالعربية والإسلامية ، فكانت منه المذكرات والبيانات والنداءات والمقالات والبحوث والرحلات والمؤتمرات والمؤلفات .

وبعد موت أخيه « نسيب » ، وإحساسه بالألم العميق لفقده ، تزيد عنايته بالعكوف على البحث والتأليف — وهو ما زال يعمل للجمع بين العروبة والإسلام — فتكون منه كتبه التاريخية والإسلامية المختلفة .

ثم يلحق بربه ، بعد أن قضى حياة حافلة بالأحداث والأعمال . فعليه من ربه سلام ورحمة ورضوان ! .

نموذج من مقالات شكيب

فى طليعة الصيف من سنة ١٩٤٠ م كانت جحافل الجيش الألمانى تدك أرجاء فرنسا دكا عنيفا ، وكان العرب والمسلمون يرون فى هذا درساً إلهيا بليغا تتلقاه فرنسا الباغية مع انجلترة العجوز ، جزاءَ ما صنعتا ببلاد العروبة والإسلام من أفاعيل .

ولم يكن هذا الشعور من العرب تفضيلا لأمة على أمة ، ولا لاستعمار على استعمار ، وإنما كانوا يرون فى هذه المعركة انتقاما ربانيا ممن طغوا فى البلاد ، وأكثروا فيها الفساد وبغوا على العباد .

وفى ١٤ من حزيران (يونيه) سنة ١٩٤٠ كتب أمير البيان شكيب أرسلان المقالَ التالى الذى نثبته كنموذج لمئات المقالات التى كتبها شكيب دفاعاً عن العروبة والإسلام ، وجهاداً فى سبيل العرب والمسلمين .

ولا تحزنوا إلا وأنتم تعلمون

اليوم دخل الألمان باريز

ليس فيما نحن فيه مجال للتفاصيل ، ولعمرى ستضيق الكتب وما وسعت ، وتجف المحابر وما سقت ، وتحنى الأقلام وما نسقت ، ولا توفى حق المعركة الكبرى المشتبكة فى ضواحى باريز التى يسميها الفرنسيس بمعركة فرنسا .

معركة بدأت من أسبوع ، وكانت فيها الجيوش الألمانية تنتقل من نصر إلى نصر ، ويقدر عدد العساكر الألمانية التى اشتركت فى هذا الزحف بمائة وعشرين فرقة ، أى مليون وثمانمائة ألف مقاتل . وقد بدأ الفرنسيون يعترفون اليوم بأن الألمان أكثر عددا وأجود عتادا منهم . وعلى كل حال فالجيش الفرنسى الذى يدافع الجيشَ الألمانى عن ذمار فرنسا هو أعظم جيش ملكته فرنسا ، ولكنه لم يقدر على مقاومة الجيش الألمانى . ولا منع سقوط باريز فى أيدى الألمان .

إن المعركة الكبرى بين ألمانيا ودول الحلفاء أى فرنسا وانكلترا وفلول بولونيا وفلول التشيك وشاردى بلجيكا وغيرهم . هذه معركة لا يقال إنها انتهت وجف القلم ، ولكن للجيش الألمانى أن يقول : كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقى ، وجميع الأدلة متظاهرة على أن الألمان ستكون لهم الطائلة الأخيرة ، والله هو الناصر الحقيقى : (يؤيد بنصره من يشاء) .

لعل هذا الدرس القاسى الذى لم تعرف مثله فرنسا ولا انكلترا يكون لهما تأديبا وموعظة ، وذكرى وعبرة ، فتعرفان أن للخلق ربا هو الله تعالى ، وأنهما هما لم تقوما مقامه على الخلق ، ولعلهما تعلمان أنهما سُقيتا بكأس كانتا تسقيان بها عباد الله :

سقيت كأسا كنت تسقى بها أمر فى الحلق من العلقم

مكنهما الله من رقاب كثيرة فتحكمنا فيها ما أرادتا . ولم ترعيا حقا ولا حرمة ، ولا حسبتا للدهر حسابا ، وظنتا أن هذه الكرة الأرضية إنما وُجدت إقطاعا لهما ، ليس فوق يدهما يد ، ولا يقدر أن يناقشهما فى أمرها أحد .

نزلت بهما البطنة ، وأبطرتهما النعمة ، ورانتا على طول الجمام ، وأشرتا من كثرة الطعام ، وظنتا أنهما لأجلهما دارت الأفلاك ، وكُوِّرت الأيام على الليالى ، وكورت الليالى على الأيام .

وبينما هما جاريتان فى ميدان بغيهما ، تمعنتان فيما ألفتا من غيهما ، إذ قال الله لهما : قفا تبكيا على خطيئاتكما ، وتقرعا سن الندم على موبقاتكما ، وتتذكرا أن من عبادى خمسمائة مليون سلكتما رباق الرق فى أعناقهم ، وحلتما بينهم وبين معايشهم وأرزاقهم ، وذلك لتملآ من جنى أيدى هؤلاء العبيد جيوبَ أهل لندن وباريز اللتين إحداهما سقطت ، والأخرى تنظر إليها ولا تقدر أن تغيثها ، أشبه بالرفيقين الذى أحدهما غرق فى اليم ، والآخر عاجز عن أن يتشله : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) .

نعم جاء الوقت الذى تجنى فيه باريز ثمرةَ اعتدائها وكبريائها ، وكان عدلا أن تحصد ما زرعت ، وتُجْزَى بما صنعت ، ولكل جنب مصرع ، وكما قال المثل العامى : ما من شجرة وصلت إلى السماء . نعم لمثل باريز أن يدوسها العدو بقدمه ، وأن يجوس خلالها ، وأن يجدع أنفها ، وأن يكون آلة عقاب يعذبها به الله تعالى ، لا على الظلم والجور وغصب بلاد الناس ، ونزع أراضيهم والاستبداد بأعناقهم وأرزاقهم فحسب ، بل على الرياء والكذب والبهتان ، وتصوير الباطل بصورة الحق ، والزعم بأنها هى ولندن مركزا الحرية وموطنا الديمقراطية : (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ

إلا كذبا) . والحقيقة أنهما هما الخانقتان لحرية الأمم التى أوقعها سوء عملها تحت نير الاستعمار الإنكليزى والفرنسى .

وأى صوت حرية يمكن أن يرتفع باللسان أو بالقلم ، وأى نداء إلى عدالة أو إنصاف يستطيع المظلوم أن يجهر به فى ظل هذين الطاغوتين الجائرين اللذين يقال لأحدهما فرنسا وللآخر بريطانيا العظمى ؟ . وأية إرادة يملكها شعب من هذه الشعوب التى أراد الله تمحيصها وابتلاءها بهذين التنينين الملتقمين لكل ما يمر بهما ؟ .

لو لم يكن من سيئاتهما سوى إفساد أخلاق البشر ، وتعويد الناس بيع الضمائر بالدراهم ، وتسليط الأموال على الحقائق الساطعة كالشمس الواقعة تحت البصر والسمع واللمس ، يملئون بطون أناس لاخلاق لهم من أمتك ، فيقومون ويجحدون ما أنت والثقلان بمرأى منه ومسمع ، ويزعمون أن أمتك غير مظلومة ولا مهضومة ، وإنما جاءت فرنسا لتعلمها وتهذبها ، وأن كل من يطالب باستقلال هذه الأمة وتخليصها من استعباد فرنسا لها إنما هو مارق خارج خائن لقومه ! وينهالون عليه بأقذع الشتائم ، ويرمونه بأعظم العظائم ، وذلك بدلا عن الأموال التى تنقدها فرنسا لأولئك البائعين لأوطانهم .

نعم لولم تكن لهم سوى هذه السيئة التى هى أعظم معول لهدم الأخلاق التى عليها قيام بناء الأمم ، لكبر ذلك مقتاً عند الله ، واستحق النكال الصارم الذى يبقى عبرة على الأيام لكل من أراد أن يفسد الأخلاق العامة فى سبيل منافعه الخسيسة .

انظر إلى هذه المعركة الكبرى التى لم يمض عليها إلا شهر واربعة أيام ، فى خلالها سقط فى يد ألمانيا هولاندة وبلجيكة والجانب الأعمر من فرنسا ، وأخذ الألمان مليونا وثلثمائة ألف أسير منهم ومن الإنكليز ، وإطلالهم على إنكلترا من أقرب السواحل إليها ، وقد انتهى الأمر اليوم بدخولهم إلى باريس ظافرين غالبين . فهذا هو شهر ولكنه دهر : « وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » .

مهما كانت ألمانيا قوية ، وكان جندها باسلين مستبسلين ، ومهما كانت أعتدتها العسكرية متفقة ، وكانت لها اختراعات آلية مدهشة ، ومهما كان « هيتلر » عبقريا خارقا للعادة ، وكانت له فى السرعة آيات بينات كالصواعق ، فلا تظنن هيتلر هنا إلا آلة إلهية ، قد هيأها العزيز الجبار للانتقام من أولئك الطواغيت الذين استبعدوا ثلث العائلة البشرية ، ثم بلغت بهم الجرأة على الله أن زعموا أنهم إنما يحاربون لأجل حرية الشعوب ، ويسفكون دماءهم ويحثون الذهب حثيا لأجل الدفاع عن الضعفاء ! .

لشد ما احتقر هؤلاء عقول البشر . وظنوا أنهم بدعاياتهم الكاذبة يقلبون حقائق الأشياء :

وأبلغ من ذلك وأبعد مدى فى الهزء بعقول الناس أن حكومتى فرنسا وانكلترا جعلتا تصليان فى الكنائس ، وتستغيثان بالله وبالقديسين والقديسات ، حتى ينصرهما الله على العدو الذى أخذ بخنقهما . ولم تكن هذه الصلوات وهاتيك الضراعات لأجل السلام وإغماد الحسام وإقرار الوئام ، ولكنها كانت لأجل إطراتهما سياسة استعباد البشر واستمرار الظلم والترف ، وذلك متوقف على هزيمة ألمانيا التى جاءت تنافسهما وتنازعهما السيادة العالمية .

ولكن الله العالم بالسرائر المحيط بالضمائر لم يسمع دعاءهم ، ولا لبى نداءهم ، وأجابهم بحكم قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ . لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ » .

ما كان هذا الواقع بهم من رزايا تفوق تصور العقول فى المال والرجال — لا تصدقوا أن خسائر الألمان كانت أفدح من خسائرهم ، بل خسائرهم كانت أعظم من خسائر الألمان — إلا جزاء على بطرهم وأشرهم وكبريائهم وجبروتهم وطغيانهم على الناس ، ولا سيما على المسلمين الذين عاملوهم سواء فى المغرب وفى الهند أو فى سائر الأقطار التى غلبوا عليها معاملات ليس فوقها إلا معاملة الحيوانات .

ما كانت هذه الداهية الدهياء والنازلة القاصمة للظهر الواصمة لهم أبد الدهر إلا جزاء إعمالهم فى المساكين من أهل المغرب ، غير عافين حتى عن النساء والأطفال والعاجزين ، وسننشر من أخبار هذه الفظائع ما نحن ناقلوه عن الفرنسيس ، بل عن الذين ارتكبوا تلك الأعمال الوحشية ، وإن كان منها ما مضى عليه قرن أو نصف قرن أو ثلث قرن ، فإن منها ما هو حديث العهد ، مثل تجريدة فرنسا على جبل الأطلس سنة ١٩٣٢ . إذ قتلوا بالآلاف ، ودمروا بالآلاف ، وحولوا مجارى المياه حتى أماتوا المسلمين بالعطش ، وأحرقوا بعض زعماء القبائل بالنار . وكان بطل هذه الأعمال الوحشية هو الجنرال (نوغيس) الذى كافأته فرنسا على موبقاته هذه ، وعلى إنهائه الدائم إلى باريس بأن كل اعتدال فى معاملة المسلمين خطأ مبين ، يستثمره المسلمون فى تقوية حركاتهم ضدها وذلك بأن جعلته المقيم العام فى سلطنة المغرب . وهو الذى حل عصبة العمل القومى المغربية ، وفتك برجالاتها سنة ١٩٣٧ . وقمع مظاهرات احتجاجها فى الشوارع بالسيف والنار ، وحكم على ألوف من الوطنيين بالحبس والأشغال الشاقة ، مما سبق لنا أن ذكرناه .

هذه الوقائع السود الجارية فى أرض فرنسا على الفرنسيس هى جزاء تعرض فرنسا للدين الإسلامى فى المغرب ، وعملها لمحوه من بين البربر تمهيدا لتنصيرهم ، ومن شاء أن يعلم حقيقة هذه المأساة فليقرأ كتاب الكاتب الكبير السيد مكى الناصرى صاحب جريدة « الوحدة المغربية » الصادرة فى تطوان ، وهو الكتاب الموسوم « بفرنسا وسياستها فى المغرب الأقصى » قدمه للمؤتمر الإسلامى المنعقد فى القدس . ووضع تحت العنوان ما يلى :

مراكش تريد

(١) أن تظل أمة محمدية .

(٢) أن تظل خاضعة للقوانين الإسلامية .

(٣) أن تظل عربية روحاً ولغة .

(٤) أن تظل متمتعة بوحدتها القومية .

(٥) أن تبقى فى الغرب سنداً للعائلة العربية .

(٦) أن تستفيد من « الحماية » معونة وسنداً .

(٧) أن تستعيد استقلالها كدولة إسلامية .

(٨) أن تكون كلمة الحق هى العالية .

فرنسا تريد

(١) أن تكرهها على المسيحية .

(٢) أن تخضعها لأعراف جاهلية ثم إفرنسية .

(٣) أن تجعلها إفرنسية روحاً ولغة .

(٤) أن تجزئها بشعوبية بربرية .

(٥) أن تدمجها بالعائلة الفرنسية .

(٦) أن تكسب من الحماية سطوة ومددا .

(٧) أن تحولها إلى مستعمرة كاثوليكية .

(٨) أن تنتصر القوة الباغية .

وهو جزاء استئثار فرنسا بأجود أراضي مراكش ، وثلثي أراضي الجزائر. وثلث أراضي تونس ، وإعطائها إلى المستعمرين الفرنسيين ، هذا عدا أخذها أكثر الضرائب المفروضة عليهم لأجل عقد قروض تدفع على سبيل التقوية لأولئك المستعمرين. وهذا جزاء بقاء ثمانمائة ألف ولد من أولاد الجزائريين — وهو إحصاء رسمي — المسلمين أميين ، لا يتعلمون شيئاً ولا من القرآن الكريم. وهذا جزاء حرمان المسلمين كل حق في منازعاتهم مع الفرنسيين ، كما تشهد به سجلات محاكمهم ومعاملتهم بقانون ، ومعاملة الإفرنج واليهود بقانون آخر ، حتى لا تكون مساواة بين الفريقين ، وهذا إلى ساعتنا هذه .

هذا جزاء أخذ فرنسا من مسلمي شمالي أفريقيا مليونا وثلثمائة ألف شاب تزج بهم في هذه النار الحاطمة بينها وبين المانيا . وهي مع ذلك تأبى أن تكافئهم على هذه المتالف الهائلة بإجراء المساواة بينهم وبين الإفرنج واليهود ، وتحكم على المطالبين بها بالحبس والأشغال الشاقة . وقد فعلت بهم الأفاعيل بتونس سنة ١٩٣٨ م . وقتلت جنودها وجرحت من المطالبين بها مئات ، ولم تجبهم إلى شيء من مطالبهم ، فهذا هو جزاؤها الآن . وكما تدين تدان .

هذا جزاء إنكلترا عما فعلته ولا تزال تفعله بالهند . وعلى ما فعلته بعرب فلسطين ، مما جراحه سائلة في قلوب العرب أجمعين ، وعلى ما بيتت من المكايد للعرب في المشارق والمغارب ، وعلى اتفاقها الأخير مع الترك . وإطماعها إياهم في أملاك العرب بدل محاربتهم في صفوفنا . وبينما هي وفرنسا تنتظران من تركيا خوض هذه الحرب في جانبهما إذا بأخبار اليوم أن تركيا أحجمت وقالت لهما إنها لا تحارب إلا دفاعا عن نفسها ، وتناست القروض التي أقرضوها إياها ١٢٣ مليون جنيه منها ١٤ مليونا ذهبا ، ونسيت نزولها لها عن اسكندرونة ، ويقال إن سفيري فرنسا وانكلترا وصلا في خطاب تركيا إلى حد التهديد . وإن

تركيا أجابت بأنها ستقف فى الموضوع على خاطر الروسية . هذه هى أخبار تركية الأخيرة ، أكلت الطعم و . . . على السنارة .

هذا جزاء غدر فرنسا بالسوريين . وعقدها معهم معاهدة تنكث بها بعد ثلاث سنوات من عقدها . وهذا جزاء تأريثها نيران العداوات فى سورية بين المسلمين والنصارى ، وبين الفرق الإسلامية بعضها مع بعض ، وبين العربى والكردى والجركسى وغيرهم ، وإيقاع كل دسيسة من شأنها صدع الوحدة السورية ، وبقاء فرنسا سيدة على سورية ولبنان ، تتجر ببلاد ليست لها ، وتجدح من سويقها فى أغراضها الخاصة .

هذا أيضا جزاء جبروتها وجبروت انكلترا ، وعظموتها وعظموت انكلترا ، وعرض هتلر عليها مرارا آخرها فى ٦ أكتوبر ١٩٣٩ ورفضهما أى بحث فى قضية الصلح قبل سحق ألمانيا فى ميدان الحرب . وذلك من شدة بأوهما بنفسهما وظنهما أنهما ستقضيان القضاء التام هذه المرة على ألمانيا ، وربَّ حام لأنفه وهو جادعه .

فإن كان الإنكليز والفرنسيس أصيبوا اليوم بما أصيبوا به ، وسقط فى أيديهم فبغيهم وغيهم وجبروتهم وعظموتهم . ومن الأمثال العربية : « يداك اوكتا وفوك نفخ »[1] . فهم هم المسئولون عما حل بهم ، وقد قيل : « لا يحزنك دم هراقه[2] أهله » .

ليس مرادنا هنا أن نشمت بمصائبهم . ولكن قلوب المسلمين ملأى منهم جراحات ، وصدور الشرقيين ولا سيما العرب مفعمة منهم حزازات ، ولا بد للمصدور من أن ينفث ، والله القاهر من فوق عباده .

جنيف ١٤ من حزيران ١٩٤٠ — شكيب أرسلان

---

(١) أصل هذا المثل أن رجلا كان فى جزيرة ، فأراد أن يعبر البحر على زق نفخ فيه ، ولم يحسن نفخه ولا ربطه ، حتى إذا توسط البحر خرج الهواء من الرقة ، فأشرف على الغرق فاستغاث برجل ، فقال : يداك أوكتا وفوك نفخ . أى يداك هما اللتان ربطتا ، وفوك هو الذى نفخ . يضرب لمن يجلب لنفسه الهلاك .

(٢) هراقه : أراقه وأساله .

وإلى هنا يقف القلم الآن مضطراً عن الحديث عن أمير البيان شكيب أرسلان ، آملا أن يجد فى غده أكثر من نطاف لتفصيل القول على مدى أرحب فى الجوانب الأدبية واللغوية والاجتماعية فى حياة هذا الكاتب الكبير الذى كان من رواد الوحدة العربية ومن الدائبين فى خدمة العروبة والإسلام . فحياته جديرة بأن يدور حولها أكثر من حديث . وأن يصدر عنها أكثر من كتاب . رحمه الله رحمة واسعة .

أحمد الشرباصى

تم بحمد الله

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تصدير	٧
العالم العربى فى عصر شكيب	١١
الحالة السياسية	١١
الحالة العلمية والأدبية	٣٤
الحالة الاجتماعية	٤١
حياة شكيب أرسلان	٤٥
موطنه وأسرته	٤٥
طائفة الدروز	٤٩
أبواه	٥٣
نشأته الدراسية	٥٤
رجال موجهون	٥٨
رحلات	٦٠
فى الحرب العالمية الأولى	٦٣
هجرة طويلة	٦٦
دفاعه عن العروبة	٧٠
رحله إلى أمريكا وروسيا	٧٤
رحلتا الحج والأندلس	٧٥
جهود ومتاعب	٧٦
عودته إلى الوطن	٩١
أيامه الأخيرة	٩٣
تأبينه ورثاؤه	٩٥
زوجته وأولاده	١٠٢
نموذج من مقالاته	١٠٦

مطابع الدار القومية للطباعة والنشر